مجلة البيان – العدد ٦٨ ، ربيع الآخر ١٤١٤هـ / أكتوبر ١٩٩٣م

كلمة صغيرة

لا يخلو الجهد الإنساني من قصور ؛ وبالتالي من سلبيات والصحوة الإسلامية ، بوصفها جهداً إنسانياً يستهدي بكتاب الله وبسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- وبمنهج سلفنا الصالح ، لم يكن من المتصور أن تخلو من بعض السلبيات ، إلا أن كثرة الحديث عن نقد الصحوة والإلحاح عليه قد أنسى بعضاً منا »إيجابيات« هذه الصحوة ، وعطاءاتها المتميزة وآثارها الكبرى في حياة الأمة ، هذه الإيجابية وتلكم الآثار ، التي حاولت »البيان« إبراز بعض جوانبها في هذا العدد.

المحرر

الافتتاحية

الإيجابية والسلبّية

التحرير

العناية والاهتمام بأخبار المسلمين وأحوالهم، والكلام عن المآسي والآلام في ديار الإسلام، مما يقتضيه واجب الموالاة والنصرة ، حيث نحزن لحزن إخواننا ، ونفرح لفرحهم فالمسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه، اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسه اشتكى كلّه«(١).

وهذا الإحساس والاهتمام يجب أن يدفعنا إلى برامج عملية جادّة لمعالجة هذه الآلام أو تخفيفها، وهذا الواجب لا يخص فئة دون أخرى ، بل يشمل جميع القادرين من المسلمين ذكوراً وإناثاً، علماء وعامة، تجارا وأطباء مهندسين وغيرهم ، فعليك أخي المسلم المشاركة بما تستطيع لخدمة دينك وأمتك ، وقول ما تستطيع فلا يكفي منك مجرد مشاركة يسيرة بوسيلة قد يستطيعها الكثيرون ممن هم أقل منك قدرة وإمكانات، بل نريد المشاركة الجادة بكل ما تستطيع من وسائل، بل وابتكار وسائل وأساليب جديدة، فالثغرات كثيرة، والأعداء كثيرة والمسؤولية جسيمة، فلا مجال للتهرب من المسؤولية ، وإلقائها على الغير، أو التعلل بالعلل الواهية، التي إن أعفتك أمام الناس، فلن تعفيك من المسؤولية أمام الله عز وجل، وهنا لابد لنا من التحذير من بعض السلبيات الواقعة لدى بعض العاملين في الحقل الدعوي :

١- التحذير من النقد السلبي، ومن مظاهره : كثرة النقد بمناسبة وبدون مناسبة، وتضخيم السلبيات والأخطاء، والتقليل من الإيجابيات أو تجاهلها، والإغراق في المثالية، مما يصيب بعض طلبة العلم باليأس والإحباط، ومن ثم عدم تقديم أي شيء للدعوة، لأنه لا جدوى من ذلك - حسب ظنهم - ونحن هنا لا نقلل من أهمية النقد والتقويم، ومراجعة الأخطاء، فالصحوة في أمس الحاجة له، وإنما نريد أن يكون ذلك باعتدال وتوازن مع طرح بدائل عملية أفضل.

٢- توهم البعض أن الإصلاح، ونصرة الدين لا تكون إلاَّ بهذه الوسيلة أو تلك، ومن ثمّ التحقير والتصغير من شأن الوسائل الأخرى ، مثل أن يظن أن نصرة الدين لن تكون إلا بوسائل علنية، ولا يجدي غير ذلك، أو يظن أن ذلك لا يكون إلا بوسائل سرية ، ومن ثم يهون من تأثير الوسائل العلنية،

وقد يتجاهل جهود الآخرين وإنجازاتهم ، وقد يتجاوز مرحلة التجاهل فيشكّك في أعمال الآخرين ، أو يطعن في نياتهم رغم اتفاقهم معه في المنهج والهدف، مما يؤدي إلى تشتت الجهود، وتفرق الكلمة والفشل، قال تعالى : ((ولا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ))
فهل من وقفة جادة لتنسيق الجهود وتكاملها؟ هذا ما نرجوه، ونسأل الله عز وجل إخلاص النية والقصد ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الهامش :

١- رواه مسلم كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم رقم ٢٥٨٦.

في إشراقة آية
((وإذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ))

د. عبد الكريم بكار

أنزل الله - جلَّ وعلا - في المنافقين سورة سُميت باسمهم ، تفضح بعض مواقفهم ، وتُخبر عن بعض صفاتهم، وكان من جملة ما نَعَتَهُمْ الله تعالى به قوله :((وإذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وإن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ))(١).
فقد وصفهم الله - تعالى - بأن الناظر إليهم يُعجبُ بجمال أجسامهم ، ومن يسمعهم يُؤخذ بفصاحة ألسنتهم ، لكنهم كالهياكل الفارغة ، أشباح بلا أرواح ، وأجسام بلا أحلام ...
وهذه الصفات تتناسب مع حالة النفاق ، إذ إن ظاهر المنافق دائماً خير من باطنه ، فظاهره الإيمان ، وباطنه الكفر ، وهو ذلق اللسان ، لكنه يقول غير ما يعتقد ؛ فهو كذاب ، وهو جميل الصورة ، لكنه عاطل من الصفات النبيلة كالإيمان والمروءة والرجولة ، وكل ما يزين الباطن.
وقد روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال : »كان عبد الله ابن أُبي (رأسُ النفاق) وسيماً جسيما صحيحاً صبيحاً ذلق اللسان ، فإذا قال سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- مقالته«(٢).
ولمّا كان للظاهر سلطانه القوي في التأثير، وانتزاع الإعجاب علَّم النبي -صلى الله عليه وسلم- أصحابه ضرورة تجاوزه إلى المعاني الباطنية ؛ لأنها هي الفيصل الحقيقي في تقييم الرجال ؛ وقد ورد في الحديث الصحيح : أن رجلاً مرَّ على النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ما تقولون في هذا؟ « قالوا: حري إن خطب أن ينكح ، وإن شفع يُشفع ، وإن قال أن يُستمع إليه « قالوا: »حريٌّ إن خطب ألا يُنكح، وإن شفع ألا يُشفَّع، وإن قال ألا يُستمع إليه« ثم مر رجل آخر ، فقال : »ما تقولون في هذا« . فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: »هذا خير من ملء الأرض مثل هذا(٣)
ففضَّل النبي صلى الله عليه وسلم الفقير على الغني ، وذلك لا يلزم منه تفضيل كل فقير على كل غني ، إنما أراد أن يعلمهم أن التفاضل لا يقوم أبداً إلا على المعاني الباطنية ، وما يتبعها من أعمال.
وتطرح هذه الآية الكريمة مسألة خطيرة في حياة الإنسانية بعامة وحياة المسلمين بخاصة ، هي قضية العلاقة بين الشكل والمضمون ، أو الجوهر والمظهر(٤).
ونعني بالجوهر ابتداءً: مجموع الخصائص الخُلُقيَّة والنفسية. والصور الذهنية، والخبرات والموازنات العميقة للفرد.
أما المظهر : فإنه مجموع ما يحمله الفرد من الصفات الجسمية ، وما يمتلكه من الأشياء ، وما يتحمله من وظائف ، مما لا يعد على صلة مباشرة بكينونته الذاتية.

في البداية ليس الجوهر والمظهر شيئين منفصلين انفصالاً تاماً، بل بينهما علاقة تأثر وتأثير وأخذ وعطاء، وقد ورد ما يدل على هذا فقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يمسح مناكب أصحابه في الصلاة، ويقول : »استووا، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم«(٥). والمرء حين ينشرح صدره يظهر ذلك على مُحيّاه ، ومن ثم قيل : »من كثرت صلاته بالليل ضاء وجهه في النهار« .

وإذا كان بين الظاهر والباطن مثل هذا التجاذب والتلازم فإن من البدهي ألا يزهِّد الإسلام الناس في الشكل ؛ فالصلاة موقف روحي بحت ، ومع ذلك حرص النبي -صلى الله عليه وسلم- على انتظام الصفوف فيها ، والأمر قريب من ذلك في صفوف القتال.

وحث الإسلام على النظافة ، كما امتنَّ الله - تعالى - علينا بما نشعر به من التأنق عند غدوِّ الأنعام ورواحها، كما قال سبحانه:((ولَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وحِينَ تَسْرَحُونَ)) (٦) ، وتلك مسألة شكلية. والأمثلة على هذا أكثر من أن تُحصى.

إذن ما هي المشكلة؟

تكمن المشكلة في اختلال التوازن بين الجوهر والمظهر ، أو بين المضمون والشكل ؛ فالبشر متفقون على أن اللباب هو الأصل ، وأنه ينبغي أن يُعطي من الاهتمام والعناية والبلورة القسط الأكبر لأن كل الإنجازات الحقيقية التي تتم على السطح نابعة أساساً من إنجازات تمت على مستوى الكينونة والجوهر. وهذا يتناسب مع حقيقة تسخير الكون الذي حبا الله - تعالى - به الإنسان ؛ كيما يظل حراً طليقاً يحكم ويأمر دون أن يُكَبَّل! بشيء من صنع يديه !

وللمجتمع وما يقره من أعراف سلطانٌ كبير على الناس ، ولما كان الحكم الاجتماعي منصباً على الشكل كان الانحدار نحو الاهتمام بالشكل هو الأمر الطبيعي المتبادر إليه، أما العناية بالجوهر فيمكن أن تنمو عن طريق التربية الخاصة في الأسرة أو المدرسة ، لكن ذلك سيظل ضعيف التأثير ما لم يكن المجتمع كله خاضعاً لمبادئ عليا خارجة عن إنتاجه ، ولن يكون مصدر تلك المبادئ حينئذ الأرض ، وإنما السماء ! لكن حين يكون الدين عبارة عن بعض الرؤى الغيبية ، أو الدغدغات العاطفية - كما هو الشأن عند بعض الملل - فإنه لا يضع شيئاً في مواجهة التيارات الاجتماعية العاتية ؛ لأنه لا يعدو آنذاك أن يكون عنصراً رخواً من عناصر الثقافة! وإن الذين الذي يوجِّه ويقاوم هو الذي نُمحِّص حياتنا من أجله!

وحينما يضعف الوازع الديني لدى المسلم فإن الميزان يميل مباشرة لصالح المظهر. وبما أننا نعيش في عصر نتأثر فيه أكثر مما نؤثر فقد أضيف إلى ضعف الوازع الديني عند أكثر الناس الوقوع تحت تأثير الفلسفة الغربية في جوانب الحياة المختلفة ، تلك الفلسفة التي شكَّلت من الإنتاج غير المحدود والحرية غير المحدودة والسعادة غير المتناهية ديناً جديداً اسمه التقدم ! واقتضى ذلك توجهاً كلياً نحو الطبيعة لاستثمار كل شيء فيها ! ثم استهلاكه بصورة جشعة لم يسبق لها مثيل ناسين أن موارد الطبيعة محدودة ، وأن الطبيعة. سوف ترد على ذلك ، بل إنها بدأت بالرد فعلاً!

وعلى صعيد الرمز فقد كان البطل المسيحي يستوحي شخصية الشهيد ، وهو عيسى - عليه السلام - حيث وهب حياته من أجل غيره - حين صلب كما يزعمون - ، ثم انقلبت الأمور رأساً على عقب، حيث صار العالم الغربي يستوحي شخصية البطل الوثني، كما يتجسد في أبطال الإغريق والرومان، ذلك البطل الذي يغزو، وينتصر،ويدمر، ويسرق، وينهب. وشتان ما بين شخصية الشهيد الذي يهب حياته من أجل غيره ، وبين المقاتل الذي غايته السيطرة على الآخرين وتضخيم الحياة الشخصية !!

وكانت النتيجة ولادة مجتمعات تعاني من الوحدة، والقلق، والاكتئاب، والنزوع التدميري، والخوف من المستقبل، والأنانية الشخصية، والتفكك الأسري...
تأثرنا - نحن المسلمين - بهذا كله من حيث ندري ، ولا ندري ، وتوجهت قوانا الفاعلة نحو الخارج، وأهملنا الجوهر، وكانت حالتنا في بعض النواحي أسوأ ممن تأثرنا بهم؛ لأن القوم صاروا إلى الشكل بعد أن حققوا ذواتهم بطريقة فعَّالة وإن كان انحرافها يحمل في النهاية بذرة موتها ؛ أما نحن فقد غادرنا الجوهر لغمر أنفسنا بالشكليات !
والناظر في سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- والحياة العامة لصحابته - رضوان الله عليهم - يجد أن السيطرة كانت للكينونة الداخلية، وليس لما يمتلكه الناس من أشياء؛ لأن المحور الأساسي للحياة الاجتماعية كان الإنسان، وليس الأشياء؛ أما الآن فقد صارت (الملكية) هي المحور ، ويتجلى ذلك واضحاً في أمور عديدة منها :
١ - تناقصت الألفاظ المستعملة في الدلالة على الجوهر ، في حين زاد تداول الألفاظ الدالة على الأشياء ، فحديث المجالس لم يعد يتمحور حول البطولات، والإنجازات، والمواقف الكريمة، والصفات الحميدة، وإنما حول العقارات، والسيارات، وأسعار السلع، وأثاث البيوت ، والأرصدة المالية...
٢ - الرغبة في مزيد من الإنتاج لتحقيق مزيد من الاستهلاك جعل اعتماد الناس على الآلة يتزايد يوماً بعد يوم، وصار الإنسان ترساً من تروسها، وصار دوره مكملاً لدورها؛ ومن طبيعة هذا الشأن أن يزيد اهتمامنا بالمظاهر ، ويشغلنا عن الحقائق.
٣ - كانت قيمة وجود الإنسان مستمدة مما يُحسن ويتقن ، وصارت المعادلة الجديدة : قيمة وجودي مستمدة من مقدار ما أملك ، ومقدار ما أستهلكُ ! وهذا ولَّد الخوف الدائم من ذهاب الملكية؛ لأن ذهابها ذهاب لمالكها؛ واقتضى ذلك مزيداً من الشح والأثرة والتقاطع...
٤ - علاقتنا بالمعرفة تبدلت ؛ فقد كان حب العلم واكتساب المعرفة من أجل الفقه في الدين وتنمية الشخصية ومعرفة الحياة... وكانت العملية التعليمية عبارة عن اندماج بين العلم وطالبه، أما الآن فقد صارت علاقة طالب العلم بما يطلب علاقة تجارية بحتة، فهو يتعلم لينال الشهادة ؛ وحفظه للمعلومات ظاهري ينتهي عند إفراغها على الورق في الامتحان !
٥ - السمات الأساسية للجوهر هي: الاستقلالية، والحرية، وحضور العقل النقدي، والاستخدام المثمر للطاقة الإنسانية، والنمو، والتدفق، لكن العلاقات الاجتماعية، والسياسية ، والاقتصادية الجديدة جعلت أنشطة الإنسان عبارة عن انشغال دائم مفصول تماماً عن قواه الروحية، بل يقف ضدها، ويحد من فاعليتها في كثير من الأحيان؛ مما أدى إلى الاتكالية والسأم والتذمر ، وجعل الحياة تفقد طعمها الحقيقي بشكل عام.
٦ - كانت عواقب الاتجاه إلى الشكل والتغافل عن المضمون كثرَة اللذائذ وانعدام السعادة! واللذة إشباع الرغبة على نحو لا يتطلب نشاطاً ، مثل لذة الحصول على مزيد من الربح ، أو هي: تجربة لحظة من لحظات الذروة يعقبها في الغالب نوع من الكآبة ، ولا سيما حين تكون غير مشروعة ، حيث يبدأ التقريع الداخلي.
أما السعادة فهي: شعور مصاحب للنشاط الإنساني؛ وهي أقرب إلى أن تكون حالة من الوجود المتصل على ربوة رحبة ؛ لأنها وهجٌ لكينونة الإنسان ، ونشاطه الداخلي.
ويمكن القول : إن السعادة في مقياسنا الإسلامي تتعاظم كلما ردم المسلم من الفجوة القائمة بين معتقداته وسلوكياته، حيث يرضى المسلم عن أدائه، ويستشرف عاقبة المتقين.

كل هذه التحولات باتجاه الشكليات جعلت كثيراً من أمة الإسلام قوة عددية ليس إلا؛ لأن الذي يفقد الصلة بمكوناته الأساسية لابد أن يصبح شكلياً. فهل تعيد الصحوة المباركة الأمر إلى نصابه بإعادة التوازن من جديد بين الشكل والمضمون، والجوهر والمظهر لنستأنف رسالتنا الحضارية؟! هذا ما نرجوه. وعلى الله قصد السبيل.

الهوامش :

(١) المنافقون : ٤.
(٢) تفسير القرطبي ١٨ / ١٢٤.
(٣) أخرجه البخاري.
(٤) ننصح بالرجوع إلى كتاب »الإنسان بين الجوهر والمظهر« الصادر ضمن سلسلة عالم المعرفة في الكويت. وقد أفدت منه هنا في بعض ما كتبت.
(٥) أخرجه مسلم وغيره..
(٦) النحل : ٦. ومثل هذا قوله سبحانه : ((والْخَيْلَ والْبِغَالَ والْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وزِينَةً)) .

أهل السنة
يعرفون الحق ويرحمون الخلق

عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد :
إن من القضايا الملحة التي ينبغي الاعتناء بها علماً وعملاً موضوع الصفات السلوكية والأخلاقية عند أهل السنة والجماعة. فإن الناظر إلى واقع كثير من دعاة أهل السنة يرى ما هم عليه من تفرّق وخصومة وتناحر بل ربما تجاوز ذلك إلى حد التضليل والتفسيق.
ويبدو أن من الأسباب الرئيسية المؤدية إلى هذا الواقع المحزن الغفلة عن الالتزام بالصفات السلوكية والأخلاقية لأهل السنة ، فأنت ترى أن أولئك الدعاة على توجه واحد ، ومنهج واحد في الاستدلال ، ومع ذلك كله فلا اجتماع ولا وئام، بل تشرذم وتناحر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
لقد اعتنى السلف الصالح بالجانب السلوكي الأخلاقي علماً وفقهاً ، كما حققوه عملاً وهدياً ، بل إن أئمة السلف يوردون الصفات السلوكية والأخلاقية لأهل السنة في ثنايا كتب العقيدة ، وعلى سبيل المثال فهذا قوام السنة إسماعيل بن محمد الأصبهاني (ت ٥٣٥هـ) يقول :
»ومن مذهب أهل السنة التورّع في المآكل والمشارب والمناكح، والتحرز من الفواحش والقبائح، والتحريض على التحاب في الله عز وجل ، واتقاء الجدال والمنازعة في أصول الدين، ومجانبة أهل الأهواء والضلالة، وهجرهم ومباينتهم، والقيام بوفاء العهد والأمانة، والخروج من المظالم والتبعات، وغضّ الطرف عن الريبة والحرمات، ومنع النفس عن الشهوات، وترك شهادة الزور وقذف المحصنات ، وإمساكُ اللسان عن الغيبة والبهتان، والفضول من الكلام، وكظم الغيظ، والصفح عن زلل الإخوان، والمسابقة إلى فعل الخيرات، والإمساك عن الشبهات، وصلة الأرحام، ومواساة الضعفاء، والنصيحة في الله، والشفقة على خلق الله، والتهجد لقيام الليل لا سيما لحملة القرآن ، والبدار إلى أداء الصلوات«(١).
والحديث عن تلك الصفات السلوكية حديث طويل ، ولكن حسبي في هذه المقالة أن أشير إلى إحدى تلك الصفات المهمة ، ألا وهي أن أهل السنة يعلمون الحق ، ويرحمون الخلق ، فإنهم أصحاب

هدى واتباع، وأرباب عمل واقتداء، ومن ثم كانوا أعلم الناس بالحق، وأحرص الناس على تبليغ الدين والدعوة إليه ، ومنابذة أهل الأهواء والبدع ، وفي الوقت نفسه فإنهم يرحمون الخلق ، ويريدون لهم الخير والهدى ، ولذا كانوا أوسع الناس رحمةً وأعظمهم شفقة ، وأصدقهم نصحاً.

يقول ابن تيمية في هذا المقام :

»وأئمة السنة والجماعة وأهل العلم والإيمان فيهم العلم والعدل والرحمة ، فيعلمون الحق الذي يكونون به موافقين للسنة ، سالمين من البدعة ويعدلون على من خرج منها ولو ظلمهم ، كما قال تعالى :((كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)) ويرحمون الخلق، فيريدون لهم الخير والهدى والعلم، لا يقصدون الشر لهم ابتداء، بل إذا عاقبوهم، وبينوا خطأهم وجهلهم وظلمهم، كان قصدهم بذلك بيان الحق ورحمة الخلق«(٢).

ويقول ابن رجب في هذا الصدد :

»كان خلفاء الرسل وأتباعهم من أمراء العدل وأتباعهم وقضاتهم لا يدعون إلى تعظيم نفوسهم البتة، بل إلى تعظيم الله وحده، وإفراده بالعبودية والإلهية، ومنهم من كان لا يريد الولاية إلا للاستعانة بها على الدعوة إلى الله وحده.

وكانت الرسل وأتباعهم يصبرون على الأذى في الدعوة إلى الله ويتحملون في تنفيذ أوامر الله من الخلق غاية المشقة وهم صابرون بل راضون بذلك ، كما كان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز - رحمه الله- يقول لأبيه في خلافته : »إذا حُرِص على تنفيذ الحق وإقامة العدل يا أبت لوددت أني غَلَتْ بي وبك القدور في الله عز وجل« وقال بعض الصالحين : »وددت أن جسمي قُرِّض بالمقاريض ، وأن هذا الخلق كلهم أطاعوا الله عز وجل« ومعنى هذا أن صاحب ذلك القول قد يكون لحظ نصح الخلق والشفقة عليهم من عذاب الله ، وأحب أن يقيهم من عذاب الله بأذى نفسه ، وقد يكون لحظ جلال الله وعظمته ، وما يستحقه من الإجلال والإكرام والطاعة والمحبة ، فود أن الخلق كلهم قاموا بذلك ، وإن حصل له في نفسه غاية الضرر«(٣).

إن التزام أهل السنة بالعلم والعدل أورثهم هذه الخصلة الرفيعة ، فمسلك أهل السنة قائم على العلم والعدل، لا الجهل والظلم ، حتى كان أهل السنة لكل طائفة من المبتدعين خير من بعضهم لبعض »بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعضهم، وهذا مما يعترفون هم به ، ويقولون : أنتم تنصفوننا ما لا ينصف بعضنا بعضاً لقد تلقى أهل السنة هذه الصفة الحميدة من صاحب الخلق العظيم نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- ، فلقد كان -عليه الصلاة والسلام - أعلم الناس بالحق ، وأعظم الناس رحمة ورأفة ، فمن أجل إظهار الحق بلّغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وجاهد في الله حق جهاده ، ومن أجل نصرة الحق نجده -صلى الله عليه وسلم- يغضب أشد الغضب ، فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب ، وكل ذلك حين رأى بعض أصحابه - رضي الله عنهم - يتخاصمون في القدر ، ثم قال : »مهلاً يا قوم بهذا أهلكت الأم من قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتب بعضها ببعض : إن القرآن لم ينزل يكذّب بعضه بعضا ، وإنما نزل يصدق بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه«(٤).

ومع ذلك كله فقد كان صلى الله عليه وسلم هو الرحمة المهداة ، قال تعالى :((لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)) .

وفي الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها - »قالت : ما خير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها«.

وتأمّل - أخي القارئ - ما لقيه -صلى الله عليه وسلم- من أنواع الأذى في سبيل دعوته ونصحه للخلق ، ولما سألته عائشة -رضي الله عنها قائلة : »يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد« فقال: »لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم استفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال فناداني ملك الجبال وسلّم عليّ ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً« ، أخرجه الشيخان.

ولقد سار سلف الأمة على ذلك، فهذا أبو أمامة الباهلي - رضي الله عنه - يقول الحق، ويرحم الخلق، فإنه لما رأى سبعين رأسا من الخوارج، وقد جزت تلك الرؤوس ونصبت على درج دمشق، فقال رضي الله عنه إعلاماً بالحق: »سبحان الله، ما يصنع الشيطان ببني آدم ، كلاب جهنم ، شر قتلى تحت ظل السماء«.

ثم بكى قائلاً : »بكيت رحمة لهم حين رأيتهم كانوا من أهل الإسلام«(٥).

وهذا الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل - رحمه الله - يثبت على كلمة الحق لا يخشى في الله لومة لائم ، فيقول بكل يقين : القرآن كلام الله غير مخلوق ، ويصبر الإمام على ما أصابه من أنواع الإيذاء والفتنة من قبل رؤوس المعتزلة - آنذاك - ، ومن تبعهم من خلفاء كالمأمون ، والمعتصم ، والواثق.

»ولما جاءه أحدهم وهو في السجن فقال : يا أبا عبد الله عليك رجال ، ولك صبيان ، وأنت معذور - كأنه يسهل عليه الإجابة -، فقال الإمام أحمد: إن كان هذا عقلك فقد استرحت(٦).

ومما قاله الإمام الذهبي - رحمه الله - في شأن محنة الإمام أحمد :

»الصدع بالحق عظيم ، يحتاج إلى قوة وإخلاص ، فالمخلص بلا قوة يعجز عن القيام به ، والقوي بلا إخلاص يخذل ، فمن قام بهما كاملاً ، فهو صدّيق ، ومن ضَعُفَ ، فلا أقل من التألم والإنكار بالقلب ، وليس وراء ذلك إيمان ، فلا قوة إلا بالله«(٧)

لقد كان الإمام أحمد بن حنبل رجلاً ليناً، لكن لما رأى الناس يجيبون ويعرضون عن الحق، عندئذ ذهب ذلك اللين، وانتفخت أوداجه، واحمرت عيناه(٨).

ومع ذلك البطش والجدل والسجن من قبل أولئك الخلفاء إلا أننا نجد هذا الإمام يقول :

كل من ذكرني ففي حلّ إلا مبتدعاً ، وقد جعلت أبا إسحاق - يعني المعتصم- في حل ورأيت الله يقول :"»وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم«" وأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أبا بكر بالعفو في قصة مسطح - ثم قال - وما ينفعك أن يعذبَ الله أخاك المسلم في سبيله؟«(٩).

وهاك مثالاً ثالثاً لأئمة أهل السنة، فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقرر عقيدة السلف الصالح، ويجاهد بلسانه وسنانه طوائف الزيغ والانحراف، فيرد على أهل الكتاب ويقمع أكاذيب الباطنية ، ويناظر الصوفية وأهل الكلام... وكل ذلك من أجل بيان الحق وتبليغه.

وفي الوقت نفسه فقد كان -رحمه الله- من أعظم الناس شفقة وإحساناً ، وإليك المشاهد الدالة على ذلك:

يقول ابن القيم: »جئت يوماً مبشراً له (أي لابن تيمية) بموت أكبر أعدائه ، وأشدهم عداوة وأذى له ، فنهرني وتنكر لي واسترجع ، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم ، وقال إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، فسروا به ودعوا له«(٩).

ولما مرض ابن تيمية - مرض الوفاة - دخل عليه أحدهم ، فاعتذر له ، والتمس منه أن يحلله، فأجاب الشيخ: »إني قد أحللتك وجميع من عاداني وهو لا يعلم أني على الحق، وإني قد أحللت السلطان المعظم الملك الناصر من حبسه إياي، كونه فعل ذلك غيره ...«(١٠).
وقال أحد خصومه (ابن مخلوف): »ما رأينا مثل ابن تيمية، حرّضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا«(١١).
وأخيراً أدعو إخواني إلى ضرورة معرفة الحق ورحمة الخلق، وأن نهتم بتحقيق العلم والعدل في هذا الشأن، وأن نسعى جادين صادقين إلى تحقيق منهج أهل السنة عقيدة وسلوكاً ، والله المستعان .

الهوامش :

(١) الحجة في بيان المحجة ٢ / ٥٢٨. وانظر عقيدة السلف للصابوني (ت ٤٤٩ هـ) ص ٩٧ - ٩٩ واعتقاد أئمة الحديث للإسماعيلي (ت ٣٧١ هـ) ص ٧٨ ، وانظر آخر مبحث في العقيدة الواسطة لابن تيمية.
(٢) الرد على البكري ص ٢٥٧.
(٣) شرح حديث »ما ذئبان جائعان« ص ١٩.
(٤) أخرجه أحمد ٢ / ١٨١ ، ١٩٥ وابن ماجه (٨٥).
(٥) انظر تفصيل ذلك في الاعتصام للشاطبي ١/ ٧١ - ٧٣.
(٦) الآداب الشرعية لابن مفلح ٢ / ٢٤ .
(٧) أسير أعلام النبلاء ٩ / ٢٣٤.
(٨) المرجع السابق ٩ /٢٣٨ .
(٩) مدارج السالكين ٢/ ٣٤٥ .
(١٠) الأعلام العلية صـ ٨٢ .
(١١) الباب الثالث ١٤ /٥٤ .

دراسات في الأصول

سد الذرائع

(١)

هيثم الحداد

من خصائص هذه الشريعة وميزاتها صلاحيتها لكل زمان ومكان ، وهو ما يُعبّر عنه أحياناً بالشمولية.
فأدلتها الأساسية وهي نصوص الكتاب والسنة ، وما ثبت من الإجماع - الذي هو بمثابة النصوص أيضاً - محصورة، لكنها مع ذلك صالحة للاستدلال على الوقائع المتجددة، التي لم تكن جزءاً من الواقع عند تنزل النصوص.
ولقد بذل علماء هذه الأمة جهودا عزّ نظيرها في خدمة هذا الدين ، وإن من أعظم جهودهم في ذلك استقراءهم نصوص الكتاب والسنة ، وإعمال النظر فيها ، فألفوا بين النصوص ذات الدلالات المتشابهة، وخرجوا بقواعد كلية، تنتظم تحتها جملة من الفروع الفقهية، فإذا صحت هذه القواعد على ما وقع، فإنها تصح كذلك على ما يقع، سواء أتى النص بحكمه أم لا.

ومن هذه القواعد ، قاعدة »سد الذرائع« وهي قاعدة عظيمة ، لها تطبيقات عديدة ، سيما في عصرنا الحاضر ، حيث كثرت نوازله ، وتعقدت مسائله ، فهي جديرة بالبحث.

*** تعريف »الذرائع« لغة :**

الذرائع جمع ذريعة ، وهي الوسيلة ، والسبب إلى الشيء ، أصلها لغة من ذرع(١).

فـ "»سـد الذرائع«" لغة : سدّ الطرق حتى لا تؤدي إلى نتائجها وآثارها ، بصرف النظر عن كون هذه الآثار محمودة أو مذمومة(٢).

*** تعريف »الذرائع« اصطلاحاً :**

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : »الذريعة هي الوسيلة ، لكنها أصبحت في عرف الفقهاء عبارة عمّا أفضى إلى فعل محرّم«(٣).

وعرفها القـرطبي - رحمه الله - بقوله : »عبارة عن أمر غير ممنوع في نفسه ، يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع« (٤). وهذا من أرجح التعريفات(٥).

وعلى هذا فالذريعة بالمعنى الاصطلاحي هي أحد أفراد الذريعة بالمعنى اللغوي ، يؤكد ذلك ما قاله القرافي رحمه الله : »اعلم أن الذريعة كما يجب سدها يجب فتحها ، وتكره ، وتندب، وتبـاح ، فإن الذريعة هي الوسيلة، فكما أن وسيلة المحرم محرمة، فوسيلة الواجب واجبة، كالسعي للجمعة والحج. وموارد الأحكام على قسمين: مقاصد، وهي المتضمنة المصالح والمفاسد في أنفسها ، ووسائل ، وهي الطرق المفضية إليها ، وحكمها حكم ما أفضت إليه من تحريم ، وتحليل، غير أنها أخفض رتبة من المقاصد في حكمها، والوسائل إلى أفضل المقاصد أفضل الوسائل، وإلى أقبح المقاصد أقبح الوسائل، وإلى ما يتوسط متوسطة«(٦).

فللذريعة - إذن - ثلاثة أركان ، هي : الوسيلة ، والمتوسَّل إليه ، والواسطة بينهما ، أو إفضاء الوسيلة إلى المتَوسَّل إليه.

ومثال ذلك : بيع العنب ، فهو وسيلة غير ممنوعة في نفسها ، واستخدام هذا العنب في صناعة الخمر هو المتوسَّل إليه ، ودرجة الإفضاء هو قوة ثبوت استخدام هذا العنب الذي بيع في صناعة الخمر ، ولهذه درجات متفاوتة.

وعلى هذه الأركان تُبنى جلّ مباحث الذرائع: تقسيماتها، وأحكامها، بل حتى تعريفها، ولذلك فإن دراسة كل ركن من هذه الأركان على حدة من الأهمية بمكان.

الركن الاول : الوسيلة :

وهي الأساس - الذي تقوم عليه الذريعة ، فبوجودها توجد باقي الأركان.

والتعبير عن هذه »الوسيلة« بأنها »أمر غير ممنوع في نفسه، يدخل المباح، والمندوب، والواجب ، ويُخرج ما كان ممنوعاً في نفسه، كشرب الخمر، فهو ذريعة للفرية ، والزنى، فهو ذريعة لاختلاط الأنساب ، لكنهما محرمان في أنفسهما ، حتى ولو لم يؤديا إلى تلك المفاسد..

الركن الثاني : المتوسَّل إليه :

ولابد أن يكون أمراً ممنوعاً ، إذ لو كان أمراً جائزاً ، لانتقلنا من الحديث عن الذريعة بالمعنى الاصطلاحي إلى الذريعة بالمعنى اللغوي.

ويُفهم من عبارات العلماء إرادة مطلق المنع أو التحريم ، ولم يحددوه بدرجة معينة ؛ إذ المنع تختلف درجاته - كما هو معلوم - ، فيتبع ذلك اختلاف قوة منع الوسيلة المفضية إليه ، فما كان المنع منه أقوى كالاعتداء على الضروريات الخمس ، كان المنع من الوسائل المفضية إليه أقوي ، فالشريعة - مثلاً - جاءت بسد أى وسيلة تؤدي إلى المساس بالدين ، سواء أكان بالابتداع فيه ، أو التساهل في أمره ، ولو كان في المحافظة عليه ذهاب الأنفس والأموال ، لأنه أهم الضروريات.

الركن الثالث :
إفضاء الوسيلة إلى المتوسل إليه ؛ وهو الذي يصل بين طرفي الذريعة : الوسيلة والمتوسل إليه.
والبحث في هذا الركن يكون في قوة الإفضاء هذه ، فهناك وسائل يكون إفضاؤها إلى المحذور ضعيفاً ، كزراعة العنب مطلقاً ؛ فإنه وسيلة إذ قد يتخذه بعض الناس لصناعة الخمر ، فهل تُمنع زراعته ؟ وإذا بيع لمن يصنع منه الخمر ، فإنه يصبح ذريعةً إفضاؤُها إلى المتوسل إليه قوية.
وضابط هذا الركن من أهم أسباب الخلاف في تعريف العلماء للذريعة؛ لأن قوة الإفضاء تختلف ، ودرجاتها ثلاثة : ضعيفة ، وقطعية ، وما بينهما.
وعلى هذا فالمقصود بسدِّ الذرائع شرعاً : »حسم مادة الفساد بقطع وسائله«(٧).

أقسام الذريعة وأحكامها :
بالنظر إلى التعريف السابق للذريعة ، وإلى حال كل ركن من أركانها على حدة نحصل على الأقسام الآتية:

القسم الأول :
وضابطه أن قوة الإفضاء فيه نادرة ، سواء أكانت الوسيلة :
أ - واجبة ؛ كالذهاب إلى صلاة الجماعة في المساجد لسامع النداء ؛ إذ قد يتعرض بيته وماله إلى السرقة.. وهكذا.
ب - أو مندوبة ؛ كالصدقة على عموم المسلمين الذين لا يُدرى ما حالهم.
جـ - أو مباحة ؛ كالتجاور في البيوت ؛ فإنه يفضى نادراً إلى الزنى.
وحكم هذا القسم الجواز في صوره الثلاث ؛ لأن النادر لا حكم له.

القسم الثاني :
وهو أنواع، تشترك في أن قوة الإفضاء: إما قطعية، أو غالبة، أو كثيرة ولكن ليست بغالبة ، فيحصل لدينا ثلاثة فروع :
١ - وسيلة مباحة تؤدي إلى محرّم ، كالسفر إلى البلاد التي تكثر فيها المنكرات ، وارتياد الأماكن العامة إذا أدى ذلك إلى رؤية المنكرات وعدم إنكارها أو أدى إلى النظر إلى العورات. وكقيام ذي الهيئة الذي يُتخذ في الناس قدوة بفعل مباح على وجه يسئ الجاهل فهمه، فيعتقد حل محرم أو تحريم حلال، ومن ذلك تولي الولايات في الجهات أو المؤسسات التي يلتبس أمرها على العامة ، فإن رأوا فيها الدَّيِّنَ الثِّقة ، ظنوا صلاحها وشرعيتها.
أما حكم هذه الذريعة فهو السدّ ؛ لأنها تؤدي إلى مفسدة أكبر من المصلحة المترتبة على فعلها..
٢- وسيلة مندوبة تؤدي إلى محرّم ، كالسفر إلى الحج النافلة ، أو إلى الدعوة غير الواجبة إذا كان ذلك يؤدي إلى تضييع حق الأولاد ، أو يغضب الوالدين.
وحكم هذه الذريعة المنع أيضاً ؛ لأن مفسدتها أعظم من مصلحتها.
٣- وسيلة واجبة تؤدي إلى محرم، وهذه موطن رحب للاختلاف، وإعمال الاجتهاد، فمن العلماء من يرى منعها مطلقا ، تغليبا لجانب الخطر على الإباحة.
والأمر يحتاج إلى نوع تفصيل، يعتمد على القاعدة الأساس في الحكم على الذرائع، وهي: »إذا تعارضت مفسدتان دُفع أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما«.
ومن صور هذا الفرع، إذا كانت الوسيلة واجبة ضرورية متعلقة بفرد واحد، تؤدي إلى متوسَّل إليه ممنوع متعلق بأمر ضروري أيضاً ، لكنه متعلق بمجموعة ، فما الحكم؟
والأمثلة الواقعية على ذلك كثيرة، وكل مسألة تحتاج إلى دراسة مستقلة حسب ظروفها ، وملابساتها ، وما يحيط بها.

* تحرير محل النزاع بين العلماء في سد الذرائع :
تنقسم الذرائع من حيث الحكم عليها إلى ثلاثة أقسام :
أ- قسمٌ أجمع العلماء على سده ، بصرف النظر : هل يُعتبر من باب »الذرائع« أم لا ؟ فبيع العنب لمن يتخذه خمراً ، وإلقاء السُّمِّ في أطعمة المسلمين ، ونحوهما من الأعمال ممنوعة سواء أسميت »ذرائع« أم لا ، وسواءً أكان الاستدلال على منعها بقاعدة »سد الذرائع« ، أو بقواعد شرعية أخرى ، كاستدلال ابن حزم - وهو ممن لا يرى العمل بسد الذرائع - على حرمة ما ذُكر بقاعدة تحريم التعاون على الإثم والعدوان.
فالخلاف المتعلق بهذا القسم خلاف لفظي لا ثمرة له، ومنشأ الاختلاف مبسوط في كتب الأصول.
ب - قسم أجمع العلماء على عدم سدّه، سواء سمي ذرائع أم لا، وذلك مثل زراعة العنب مطلقاً ، فلا تمنع خشية أن يستخدمه بعض الناس لزراعة الخمر.
جـ - القسم الثالث هو موطن النزاع ، الذي وقع فيه خلاف حقيقي ، والخلاف فيه بالتحديد في صورتين :
الأولى : ما هي درجة الإفضاء التي يحكم عندها بمنع الوسيلة، هل هي الدرجة القطعية، أم الظنية ظناً غالباً - وإن لم يكن كثيرا - ، أم الدرجة الكثيرة ؟ بمعنى هل يُلحق الكثيرُ غيرُ الغالب، بالغالب، فيأخذان حكم القطعي؟ الظاهر - والله أعلم - أنهما يلحقان بالقطعي، فيحكم عندئذ بسد الذرائع، وذلك من أجل الاحتياط ، ولأن كثرة وقوع المفاسد مع قابليتها للتخلف يجعلها قريبة الوقوع، ثم إن الشرع ورد بتحريم أمور كانت في الأصل مباحة ؛ لأنها تؤدي في كثير من الأحيان إلى مفاسد ، حتى وإن لم تكن غالبة(٨).
الثانية: هل العبرة في العقود بمجرد الظاهر - كما يرى ذلك الشافعية - أو أن للقصد تأثيراً في الحكم على الذريعة؟ بمعنى : هل يمنع الفعل الذي يؤدي إلى ممنوع حتى وإن لم يقصد صاحبه ذلك الممنوع؟ كمن يسب آلهة المشركين أمامهم، غيرة على دينه، مع أن ذلك يؤدي إلى سب الله - تعالى - الذي لا يقصده مسلم. الراجح أن القصد ليس له تأثير في الحكم على الذريعة ، خصوصاً قبل الفعل ، فالكلام في المنع الذي يكون قبل الفعل ، لا في التأثيم الذي يبحث فيه بعد الفعل ، وذلك حتى لا يفتح الباب لفعل ذلك مرة أخرى ، وحتى لا يتساهل الناس في ذلك ، أو يظنوا حِل ذلك الفعل(٩).

الهوامش:

(١) انظر : مادة (ذرع) في : القاموس المحيط ، ومختار الصحاح.
(٢) انظر : سد الذرائع للبرهاني ٥٢ وما بعدها.
(٣) الفتاوى المصرية الكبرى ٦/ ١٧٤ .
(٤) انظر : سدّ الذرائع للبرهاني ٧٤.
(٥) وهناك تعريفات أخرى انظرها في : البحر المحيط للزركشي ٦ / ٨٢.
(٦) الفروق ٢ / ٣٣ ، وقارن بما في إعلام الموقعين ٣ / ١٤٧.
(٧) تقريب الوصول لابن جزي ١٤٩.
(٨) أصول الفقه وابن تيمية لآل منصور ٥٠٣.
(٩) المصدر نفسه ٥٠٣.

الهروب إلى الأمام

محمد العبدة

عندما تكون وطأة الواقع ثقيلة قوية ، وعندما لا يقوم المسلمون بواجبهم من الأخذ بالأسباب الشرعية والاهتمام بالعدد والعدة، وعندما يفشلون بسبب أخطائهم المتكررة ، أو مخططاتهم القاصرة، عند ذلك يلجأ بعضهم إلى ما يسمى في علم النفس بسياسة (التعويض) فتوسوس لهم نفوسهم تخيلات موهومة، وحكايات عجيبة، وأشياء مضطربة، تتملكهم وتسيطر عليهم، حتى يظنونها شيئاً وهي ليست بشيء ، وإنما هي أوهام وظنون. فيركضون - مثلاً - وراء (خليفة) وهمي، أو يقعون في حالة اليأس والإحباط وينتظرون (المهدي)، أو يذهبون إلى عالم آخر، عالم الجن والشياطين، فقد حدثني أحد الثقات أنه قد أُلف في بلده وحدها في السنوات الأخيرة حوالي سبعين كتاباً أو كتيباً عن الجن والشياطين، وغالباً ما تكون النوايا طيبة في مثل هذه الحالة ، ولكن ليس هذا هو الطريق.

وقد يهرب أناس من هذا الواقع الذي يدعوهم للتحدي والتعب والنصب إلى الإغراق في تفاصيل العلوم ، الذي هو من قبيل (تلبيس إبليس) والذي غيره أفضل منه وأولى.

إن حالتهم هذه شبيهة بما وقع للمسلمين بعد القرون المفضلة، عندما هرب بعضهم إلى التصوف والزوايا والتكايا ، ينذرون للأولياء النذور ، ويطلبون منهم الحاجات ، فوقعوا في الشرك والكسل والبطالة ، كما وقعوا في الأفكار الغامضة المشوشة.

تكَالب العالمُ في هذه الأيام على المسلمين ، ورماهم عن قوس واحدة ، وأظهر ما كان يخفيه من قبل، وبانت عداوته صريحة لا التواء فيها، فماذا يفعل المسلمون؟

هل يجابهون هذا بافتعال أمور ليست صحيحة؟ أم أن الأولى بهم دراسة هذا الواقع، والتأمل فيه، ومعرفة مكامن القوة ومكامن الضعف، ومجابهة هذا الواقع بالإمكانات الذاتية والقدرات الموجودة بعد تنميتها وصقلها.

لابد من البحث العميق في نفسية المسلم وعقله وأخلاقه التي تعيق النهوض والتمكن، والبحث العميق في أسباب التفرق وأسباب التوحد ، والإخلاص في ذلك كله لله. ولابد من تملك ناصية كل العلوم المفيدة التي يأمر بها الإسلام ويحبذها، لتكون وسيلة من وسائل ((وأعدوا....)) ولابد من المال الذي يساعد على تحقيق هذه الأهداف حتى يكون الدين كله لله.

لاشك أن هذه الأمور أصعب على النفس التي تلجأ إلى أحلام اليقظة ، وتستروح رفقة يؤيدون هذا الهروب ويشجعونه سواء أكان عن جهل ، أو عن خفيات الهوى ونزغاته..

مصطلحات وتعريفات

الكُفْـر

بقلم / عثمان جمعة ضميرية

-١-

الكفر في اللغة هو الجحود. وأصله من الكَفْر ، وهو السَّتْر والتغطية.

يقال: كفَرتُ الشيء: إذا غطيته. ومنه قيل للَّيل: كافر ، لأنه يستر الأشياء بظلمته.

وسمى الزارع كافرا لأنه يستر الحبَّ بالتراب. وليس الكافر اسما لليل أو الزارع ، ولكنه وصف لهما.

والكفر: ضد الإيمان، سمى بذلك لأنه تغطية وستر للحق، فالكافر ساتر للحق، أو ساتر لِنَعم الله تعالى عليه.
ويقال : كفر بالله ، يكفُر كُفراً ، وكفوراً ، وكُفرْاناً. وأكفر فلانا : دعاه كافراً.
وتستعمل كلمة »الكُفْر« في الدين أكثر من استعمالها في كفران النعمة، »والكفران« في جحود النعمة ، و »الكَفور« فيهما جميعاً. و»الكافر« عنه الإطلاق - متعارف فيمن - يجحد الوحدانية أو النبوة أو الشريعة ، أو يجحدها جميعاً(١).
وأما تعريف الكفر اصطلاحاً ، فيقول ابن تيمية في ذلك :- »الكفر :عدم الإيمان ، باتفاق المسلمين، سواء اعتقد نقيضه وتكلم به، أولم يعتقد شيئاً ولم يتكلم« مجموع الفتاوي ٨٦/٢٠.
ويقول أيضاً :- »إنما الكفر يكون بتكذيب الرسول -صلى الله عليه وسلم- فيما أخبر به ، أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه ، مثل كفر فرعون واليهود ونحوهم« درء تعارض العقل والنقل ٢٤٢/١.
ويعرف ابن حزم الكفر بهذه العبارة :
وهو [أي الكفر في الدين] : صفة لمن جحد شيئاً مما افترض الله تعالى الإيمان به بعد قيام الحجة عليه بقلبه دون لسانه ، أو بلسانه دون قلبه ، أو بهما معاً ، أو عمل عملاً جاء النص بأنه مخرج له بذلك عن اسم الإيمان.
ويقول السبكي : »التكفير حكم شرعي سببه جحد الربوبية ، أو الوحدانية ، أو الرسالة ، أو قولٌ أو فعلٌ حكم الشارع بأنه كفر ، وإن لم يكن جحدا« (فتاوي السبكي ٢ / / ٥٨٦)
فالكفرْ اعتقادات ، وأقوال ، وأعمال ، حكم الشارع بأنها تناقض الإيمان.
والكفر حكم شرعي ، والكافر من كفره الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- فليس الكفر حقا لأحد من الناس ، بل هو حق الله تعالى.
يقول ابن تيمية :- »ولهذا كان أهل العلم والسنة لا يكفرون من خالفهم ، وإن كان ذلك المخالف يكفرن ؛ لأن الكفر حكم شرعي ، فليس للإنسان أن يعاقب بمثله ، كمن كذب عليك ، وزنى بأهلك ، ليس لك أن تكذب عليه ، ولا تزنى بأهله ؛ لأن الكذب والزنا حرام لحق الله تعالى. وكذلك التكفير حق الله فلا يُكفر إلا من كفّره الله ورسوله« الرد علي البكري ص ٢٥٧.
ويقول ابن الوزير :- »إن التكفير سمعي محض لا دخل للعقل فيه ، وإن الدليل على الكفر لا يكون إلا سمعياً قطعياً ، ولا نزاع في ذلك« العواصم والقواصم ٤ / ١٥٨.
والكفر نوعان : كفر أكبر ، وكفر أصغر.
أما الكفر الأكبر ؛ فهو ما يضادُّ الإيمان من كل وجه ، ويُخرج صاحبه من الدين والملة ، ويُوجب له الخلود في النار. قال الله تعالى : ((إِنَّ الَذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ والْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا))[البينة:٦]
وهذا الكفر يأتي في النصوص الشرعية مقابلاً للإيمان فيكون ضده.وإذا أطلق لفظ »الكفر« فإنه ينصرف إلى هذا النوع ، فهو الكفر الأكبر الذي يحبط العمل ، ولا يغفره الله لصاحبه إذا مات عليه.
ويتنوع الكفر إلى ستة أنواع ، من لقى الله تعالى بواحد منها لم يغفر له ، وهي(٢):
١ - كفر الإنكار ، وهو أن ينكر بقلبه ولسانه ، ويزعم أنه لا يعرف الله أصلا ولا يعترف به ، ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد ، قال الله تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ))[البقرة:٦] : أي كفروا بتوحيد الله وأنكروا معرفته.
٢ - كفر الجحود ، وهو أن يعرف الله بقلبه ، ولا يقرّ ولا يعترف بلسانه ، فهو كافر جاحد ، مثل كفر اليهود وجحودهم لنبوة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- ، وكتمانهم لصفاته في كتبهم :((إِنَّ

الَذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ والْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ويَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ))[البقرة:١٥٩].

وهذا الجحود قد يكون عاما بأن يجحد جملة ما أنزله الله تعالى أو يجحد إرسال الرسل ، وقد يكون خاصاً مقيداً ، بأن يجحد فرضاً من فروض الإسلام ، أو يجحد تحريم محَّرم من محرماته.

٣ - كفر الشك، حيث لا يجزم بصدق رسول الله ولا بكذبه، بل يشك في أمره، ولا يستمر هذا الشك إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن آيات الله ، ودلائل صدق الرسول.

٤ - كفر الإعراض ؛ بأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، فلا يصدقه ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه. وبينه وبين ما سبق صلة.

٥ - كفر النفاق، بأن يظهر بلسانه الإيمان، وينطوي قلبه على التكذيب، وهـــو النفاق الاعتقادي.

٦ - كفر العناد ؛ وهو أن يعرف الله بقلبه ويعترف ويقرّ بلسانه ، ويأبى أن يقبل الإيمان أو أن يدين به ، فهو كفر إباء واستكبار ، مثل كفر إبليس .

- وما أكثر الأبالسة اليوم - فإنه لم يجحد أمر الله تعالى ، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار. وكذلك كفر فرعون وأبي طالب إنما هو من هذا اللون.

وأما الكفر الأصغر فهو مخالفة لحكم من أحكام الشريعة ، ومعصية عملية لا تُخْـــرج عن أصل الإيمان ، وإنما توجب لصاحبها الوعيد بالنار دون الخلود فيها ، وسميت كـفـــرا لأنها من خصال الكفر.(٣)

ويمكن تعريفه بأنه كل معصية أطلق عليها الشارع اسم الكفر ولم تصل إلى حد الكفر.

وهذا النوع من الكفر يسميه بعض العلماء : الكفر العملي ، الذي يقاب الكفر الاعتقادي. وهـو أيضاً : كفر النعمة ، مع العلم أن الكفر العملي ينقسم إلى : ما لا يخرج عن الـمـلـــة كالطعن في الأنساب والنياحة على الميت.

وقسم يخرج عن الملة كالسجود لغير الله ، وإهانة المصحف.

ومن الأمثلة الظاهرة على الكفر الأكبر في عصرنا الحاضر : الامتناع عن الحكم بشريعة الله تعالى ، وتطبيق القوانين الوضعية بدلاً عنها.

إن الحكم بما أنزل الله تعالى وحده هو إفراد الله بالطاعة ، قال تعالى :((إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ)) [يوسف :٤٠].

والإشـــراك بالله في حكمه ، والإشراك به في عبادته كلها بمعنى واحد ، لا فرق بينهما البتة ، فالذي يتبع نظاماً غير نظام الله ، وتشريعاً غير تشريع الله ، كالذي يعبد الصنم ، ويسجد للوثن ، لا فرق بينهم البتة.

ويكون الحكم بغير ما أنزل الله كفراً أكبراً في عدة حالات منها :

١ -أن يجحد أو ينكر الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الشريعة.

٢ -أن يفضل حكم الطاغوت على حكم الله تعالى.

٣ - أن يساوي بين حكم الله تعالى حكم الطاغوت.

٤ - أن يجوز الحكم بما يخالف حكم الله وروسوله ، أو يعتقد أن الحكم بما أنزل الله تعالى غير واجب ، وأنه مخير فيه.

٥ - من لم يحكم بما أنزل الله إباءً وامتناعاً ، فالكفر ليس تكذيبا فحسب ، بل قد يكون امتناعاً عن اتباع الرسول مع العلم بصدقه ، والإيمان قول وعمل ، وتصديق وانقياد ، فلا يتحقق الإيمان مع ترك الانقياد والطاعة.

الـهوامش :

١ - انظر: الزاهر للأزهري ص:(٣٧٩)، معجم مقاييس اللغة:٩/٥، لسان العرب:١٤٤/٥ الكليات للكفوي:٥٣٥/٢، مفردات القرآن للراغب ص (٤٣٤)، المغرب للمطرزي:٢٢٤,/٢
٢ - هذا التقسيم نجده عند علمائنا قديما، فهو في »الزاهر« للأزهري ث(٣٨٠ - ٣٨١) وتفسير البغوي : ١ / ٦٤ طبعة دار طيبة. وشهره ونشره الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومن قبله ابن القيم - رحمهم الله تعالى.
٣ - فتح البارى لابن حجر:١ / ٨٣ - ٨٤، شرح النووي على صحيح مسلم:٤٩/٢-٥٠.

من فقه الدعوة

دعوة إبراهيم عليه السلام
(٣)
أساليب إبراهيم عليه السلام في نشر دعوته

محمد بن عبد العزيز الخضيري

١ - تقرير توحيد الألوهية ببيان دلائل الربوبية :

جميع دعوات الرسل قائمة على تقرير توحيد الألوهية الذي من أجله خلق الله الثقلين ((ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ)) ، وهو الذي اختلف الناس فيه ، ووقع لديهم بسببه زيغ عظيم ، ولذلك أخبرنا الله عن هدف بعث الرسل بقوله ((ولَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)).

أما توحيد الربوبية : فأكثر الناس متفقون عليه ، وهو الإقرار لله بالخلق والتدبير والملك ((ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)) وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية ، فالذي يستحق العبادة وحده هو الذي يخلق ويرزق ، ويحي ويميت ، وينفع ويدفع ، ويملك ويدبر ، وقد بيّن الأنبياء لأقوامهم هذا أتم بيان ، ومنهم إبراهيم ((إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ واتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ واعْبُدُوهُ واشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)) فبين أن الله هو الرزاق ، فهو إذن المستحق للعبادة دون سواه ممن لا يملكون لأنفسهم - فضلاً عن غيرهم - رزقاً ولا نفعاً ولا ضراً، وقال: ((أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ * الَذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * والَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي ويَسْقِينِ * وإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * والَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ...)) وأمثلة ذلك كثيرة.

٢ - التصريح بقصد النصيحة وأنه لا هدف للداعي إلا نفع المدعوين وأنه لا يريد على ذلك حظا من الدنيا :

إن إعلان الداعية عن هذا للمدعوين من شأنه أن يلين قلوبهم ، ويدعوهم إلى تأمل ما يُدعون إليه ، ولقد درج على ذلك الأنبياء جميعاً ، فقال نوح : ((ويَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى اللَّهِ..)) وقال هود: ((يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى الَذِي فَطَرَنِي)) وفي سورة الشعراء ذكر الله :((ومَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ)) ذكرها عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وقال محمد -صلى الله عليه وسلم-:((قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى الله وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)) .

وحكى الله عن إبراهيم أنه قال لأبيه :((يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِياً)) فهو لا يريد شيئاً من أبيه ، وإنما يخاف عليه من عذاب الرحمن، فيكون ولياً للشيطان ، وتأمل في العبارات التي نطق بها إبراهيم : (أخاف) و(يمسك) و(عذاب من الرحمن) تُلفها تعبر بصدق عما يكنه إبراهيم لأبيه.

٣ ـ الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة :

وقد جاءت جلية في دعوته لأبيه وخطابه الرقيق الحاني المتدفق ليناً ـ وعطفاً ولطفاً ، اتباعاً للحكمة التي تقرب المدعو من الدعوة وتلين قلبه للاستجابة.

٤ ـ التشنيع على المعبودات الباطلة وعابديها :

لما بين إبراهيم لقومه دعوته ، وألان لهم الخطاب ، لعنهم يستجيبون ، وما زادهم ذلك إلا التمادي في باطلهم ، فما كان من إبراهيم إلا أن أظهر تهافت معبوداتهم وأحنق النكير عليهم ، فقال :((مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)) فسماها تماثيل ولم ينعتها بوصف (الألوهية)، ولما ظهر له أنهم لا يعتمدون فيما فعلوا على حجة وبرهان قال لهم: ((لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)) وزاد فقال :((أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)) ولقد برهن لهم على سفههم ما سوغ في تهكمه بتصرفاتهم حيث سألهم: ((هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ)) فإن أقل ما يقال في هؤلاء المعبودين أنهم لا يسمعون كعابدين فكيف يجلبون لهم نفعاً أو يدفعون عنهم ضراً؟

٥ ـ التذكير بنعم الله على عباده :

جبلت النفوس على حب من أحسن إليها ولذلك عنىَ الدعاة إلى الله بتذكير الخلق إحسان الله إليهم ليكون ذلك أدعى إلى قبول الدعوة فهذا هود يقول :((واذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)). وقال صالح :((واذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)) وأما إبراهيم فقال :((أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ))

٦ ـ التذكير بأيّام الله :

ما من أمة تَخْلف في الأرض إلا وتنظر في أحوال من سلف من الأمم تتبع مواطن العبرة فيها، فتستفيد من الإيجابيات ، وتحذر من السلبيات ، وكان أنبياء الله يذكرون أممهم بأحوال الغابرين ممن كذبوا أو آمنوا ، فيذكرونهم بعاقبتهم ، وينذرونهم أن يحل بهم ما حل بمن كفر من أمم الأرض، لعلهم يتعظون أو يرتدعون، ولذا قال إبراهيم لقومه :((وإن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ)) أي فقد كذبت أممٌ أنبياءهم فحل بهم ما تعلمون من العذاب ، فإن فعلتم عوقبتم بمثل عقابهم، وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

٧ ـ المناظرة والتدرج في إفحام الخصم :

قال ابن القيم في مناظرات إبراهيم : »وهو الذي فتح للأمة باب مناظرة المشركين وأهل الباطل ، وكسر حججهم ، وقد ذكر الله مناظرته في القرآن مع إمام المعطلين ، ومناظرته مع قومه المشركين ، وكسر حجج الطائفتين بأحسن مناظرة ، وأقربها إلى الفهم وحصول العلم(١) »وسنذكر هنا مناظرتين وقعتا لإبراهيم، وذكرهما القرآن الكريم :

ـ الأولى : مناظرته لعبدة النجوم قال الله تعالى ((وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً

قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وجَّهْتُ وجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ حَنِيفاً ومَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ * وحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وقَدْ هَدَانِ... الآية)) إلى قوله ((وتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ))*

لقد عني إبراهيم بإخوانه من الأنبياء بالتوحيد وإيضاحه،والاستدلال له أيما عناية،وسلك في سبيل بيان الحق ، وتزييف الباطل كل وسيلة تؤدي إلى ذلك، ومنها هذه المناظرة التي قامت بينه وبين قومه لبيان حقيقة ما هم عليه من الضلال.

فأنكر على أبيه اتخاذ الأصنام آلهة ، ولما أشرك قومه معه شدد في إعلان الفكر عليهم، وبين أن ما هم فيه ما هو إلا ضلال يبُين عن نفسه ، وذلك ليثير عواطفهم ، ويدفعهم إلى التفكير الجاد العميق فيما هم فيه ، وكان إبراهيم قد بصره الله بالدلائل الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى ، فآراه آياته في ملكوته ، ليعلم حقيقة التوحيد ، أو ليزداد علما به ، ويقينا إلى يقينه.

وأرشده إلى طريقة الاستدلال بها على المراد من العباد.

ودخل إبراهيم مع قومه الصابئة الذين يعبدون النجوم ، ويقيمون لها الهياكل في الأرض ، دخل معهم في مناظرة لبيان بطلان ربوبية هذه الكواكب المعبودة، ولم يشأ أن يقرر التوحيد مباشرة. بل جعل دعوى قومه موضوع بحثه ، وفرضها فرض المستدل لما لا يعتقده ، ثم كر عليها بالنقض والإبطال ، وكشف عن وجه الحق ، فحينما أظلم الليل ورأى النجم قال : هذا ربي فرضا وتقديرا ، وقال : أهذا ربي ، فلما غاب عن أعينهم علم أنه مسخر ليس أمره إليه ، بل إلى مدبر حكيم يصرفه كيف شاء ، ثم انتقل بهم في البحث إلى كوكب هو في أعينهم أضوأ وأكبر من الأول ، وهو القمر ، فلما رآه قال مثل مقالته الأولى ، فلما ذهب عن أعينهم تبين أنه ليس بالرب الذي يجب أن تألهه القلوب، ويضرع العباد إليه في السراء والضراء ، ثم انتقل بهم إلى معبود لهم آخر أكبر جرماً من السابقين فلما أفل، قال: يا قوم إني بريء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ، فاستدل بما يعرض لها من غيرها على أنها مأمورة مسخرة بتسخير خالقها.

فإذا كانت هذه الكواكب الثلاثة في نظرهم أرفع الكواكب السيارة وأنفعها قد قضت لوازمُها بانتقاء سمات الربوبية والألوهية عنها ، وأحالت أن تستوجب لنفسها حقاً في العبادة فما سواها من الكواكب أبعد من أن يكون لها حظ ما في الربوبية أو الألوهية ، ولذا أعلن إبراهيم في ختام مناظرته براءته مما يزعمون من الشركاء ، وأسلم وجهه لفاطر السماوات والأرض ومبدعهما ، دون شريك أو ظهير ، وضمَّن إعلان النتيجة الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية ، وهذا هو معنى (لا إله إلا الله) فإن ما فيه من البراءة من الشركاء نظير نفي الألهية الحقة عن الشركاء في كلمة التوحيد ، وبهذا يكون إبراهيم قد سنَّ للدعاة إلى الله أسلوبا متميزا في دعوة المنحرفين ، وذلك بالتنزل معهم بالتسليم بأباطيلهم فرضاً ، ثم يرتب عليها لوازمها الباطلة ، وآثارها الفاسدة ، ثم يكر عليها بالنقض والإبطال ، فإن الدعوة إلى الحق - كما تكون بتزيينه ، وذكر محاسنه - تكون بتشويه الباطل ، وذكر مساويه ومخازيه (بتصرف من مقالة الشيخ عبد الرازق عفيفي في مجلة التوعية الإسلامية عدد ٦ ، ٧).

الثانية : مناظرته للملك في قوله تعالى _((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ المُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَذِي يُحْيِي ويُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ فَبُهِتَ الَذِي كَفَرَ واللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ))[البقرة:٢٥٨].

لقد جادل الملكُ إبراهيم في ربه ، وفي ذكر الرب وإضافته إلى الضمير العائد على إبراهيم تشريف لإبراهيم وإشعار بأن الله سيتولاه وينصره.
ولماذا يجادله؟ لأن الله آتاه الملك ، فحمله كبره وبطره على طلب المخاصمة ، ولم يكن بسبب إيثاره الحق وطلبه له.
وكان الملك قد طلب من إبراهيم عليه السلام أن يقيم له الدليل على وجود الرب الذي يدعو إليه ، فقال إبراهيم : »ربي الذي يحيي ويميت« أى أن الدليل على وجوده هو : هذه المعجزة المتكررة الظاهرة المستترة ، معجزة الحياة والموت ، عندئذ قال الملك »أنا أحيي وأميت« فآتى برجلين استحقا القتل فأمضيه في أحدهما دون الآخر ، فأكون قد أحييت الثاني ، وأمت الأول ، وهذه مكابرة صريحة، وعناد ظاهر ، يعلمه كل ذي عقل ، ولذلك ترك إبراهيم الخوض معه في مكابرته ، وجاءه بواقعة لا يحير معها جوبا ، قال : »فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب« أي إذا كنت قادراً على الإحياء والإماتة، وهما من صفات الرب ، فيلزم أن يكون بمقدورك التصرف في الكون ، وأن تأتي بالشمس من المغرب ، عندئذ بهت الذي كفر ، والله لا يهدي القوم الظالمين.
إن انتقال إبراهيم من دليل إلى آخر دون مناقشة لإجابة الملك الساذجة ليس عن هزيمة ؛ لأن حجته كانت قائمة ، إذ إبراهيم وكل عاقل يعلم أن المراد حقيقة الإحياء والإماتة ، أما ما فعله الملك فأمر يقدر عليه كل أحد ، حتى إبراهيم كان يمكن أن يقول له : إني أردت حقيقة الإحياء والإماتة ، أما هذا فأنا أفعل مثله ، ولكن إن قدرت على الإماتة والإحياء فأمت هذا الذي أطلقته من غير استخدام آلة وسبب ، وأحي هذا الذي قتلته ، فيظهر به بهت اللعين ، إلا أن القوم لما كانوا أصحاب ظواهر ، وكانوا لا يتأملون في حقائق المعاني خاف إبراهيم الاشتباه والالتباس عليهم ، فضم إلى الحجة الأولى حجة ظاهرة ، لا يكاد يقع فيها أدنى اشتباه.
وهذا الانتقال من أحسن ما يكون ، لأن المحاجج إذا تكلم بكلام يدق على سامعيه فهمه ، ولجأ الخصم إلى الخداع والتلبيس جاز له أن يتحول إلى كلام يدركه السامعون ، وأن يأتي بأوضح مما جاء به ، ليثبت ما يريد إثباته ، وهذا لأن الحجج مثل الأنوار ، وضم حجة إلى حجة كضم سراج إلى سراج ، وهذا لا يكون إلا دليلا على ضعف أحدهما أو بطلان أثره.

٩ ـ استثارة الخصم :

والمقصود بذلك : تحريك نفوس المدعوين ، وتنبيه عقولهم ، ولفت أنظارهم إلى الأمر الذي يدعوهم إليه الداعية.
لقد فعل إبراهيم ذلك حين ترك كبير الأصنام بلا هدم (فجعلهم حطاماً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون) وذلك من أجل أن تدور في أذهانهم الأسئلة التالية؟
- من فعل هذا بآلهتنا؟
- لِم لمْ يدافع الصنم الكبير عن صغاره؟ وهل كان ذلك عن عجز أو عدم إدراك لما يقع حوله؟
- لِم لمْ يوقع الصنم الكبير سوءاً بمن فعل ذلك ؟
ثم استشارهم مرة أخرى حينما جاؤا إليه يسألونه عمن أوقع ذلك بآلهتهم فقال :
- بل فعله كبيرهم هذا ، فنسكب التكسير إلى جماد لا يتحرك ، ليقولوا له مباشرة : إنه لا يفعل شيئاً ، وليقروا بضعف هذه الآلهة.
- ولم يكتف بذلك ، بل أمرهم أن يوجهوا إليها الأسئلة إن أخبرهم بمن أوقع بها ذلك ، ولذلك أجابوا بكل سذاجة : »لقد علمت ما هؤلاء ينطقون« وعند ذلك انطلق مبادرا »أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون«.

ثانياً الأساليب العلمية :

وهي كثيرة نختار منها :
١ - القدوة : لقد كان إبراهيم مثالاً يحتذى في الخير ، ولذلك وصفه الله بقوله ((إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)) أي جامعا للخير ، كلفه الله بأمور فقام بها خير قيام ((وإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ)) وكان الجزاء : ((إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)) فالسبب الذي أهله للإمامة إتمامه الكلمات التي ابتلاه ربه بها ، ومن أجل ذلك أُمر نبينا -صلى الله عليه وسلم- باتباع ملته (ثم أوحينا إليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا) وأُمرت هذه الأمة أن تأتسي بإبراهيم ومن معه ، لكونهم قدوة (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه) والأمر الذي نهينا عن الإقتداء بإبراهيم فيه استغفاره لأبيه »إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ، وما أملك لك من الله من شيء« وقد تقدم ذكر بعض من صفات هذا النبي الكريم وأساليبه وأعماله وما كان به قدوة للمصلحين من بعده (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه).
٢ - البداءة بالأهم : بدأ إبراهيم بالدعوة إلى توحيد العبادة ، وهو أهم ما يدعي إليه ، وأول ما يبدأ به (وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون).
٣ - اللين والشدة : وهذا ظهر جليا في دعوته لأبيه ، وفي دعوته لقومه ، فقد دعا كلا منهم باللين والاستعطاف ، لعل كلامه يتخلل قلوبهم ، ولينه يعطف أفئدتهم لقبول الحق الذي جاء به ، ولكن ما زادهم إلا عتوا ، فما كان منه إلا أن أغلظ لهم القول ، وشدد اللهجة ، ففي اللين قال :((يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً)) وفي الشدة قال : ((وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)) .
٤- البراءة والمعاداة : التي تعني البراءة من الشرك وأهله واعتزالهم ، وهي أصل من أصول العقيدة ومن مستلزمات (لا اله إلا الله). قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : »أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله« ومفاصلة خصوم الدعوة ارتفاع بالنفس والعقيدة إلى المستوى اللائق بهما ، فلا يستوي حزب الله الذى كتب الله له العزة والكرامة وحزب الشيطان الذي كتب الله له الذلة والهوان ، وفيها إشعار لأولئك الخصوم بأنهم على باطل ، وأن الأمر ما وصل بالداعية إلى المقاطعة إلا لحق يعتنقه ويدعو إليه ، فيكون ذلك ردعا لهم عما هم فيه. وفيها قطع لآمال أعداء الدعوة في الحصول على تنازلات من الدعاة ، يستدرجونهم بها.
وقد قال إبراهيم لأبيه حين استكنف واستكبر : (واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي...) وجعله الله في براءته من المشركين قدوة ، فقال : ((قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ والَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ ومِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وبَدَا بَيْنَنَا وبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ والْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ومَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وإِلَيْكَ أَنَبْنَا وإِلَيْكَ المَصِيرُ)) . وقد اشتملت هذه الآية على أمور نوجزها فيما يلي :-
- أن البراءة قائمة على الإيمان بالله فمن كان مؤمنا بالله أحب في الله.
- أنها نهج الأنبياء ، فمن أراد النجاة فليلحق بركابهم ، ويستن بهديهم.
- أن البراءة ليست من أشخاصهم فحسب ، بل ومن آلهتهم ، وأفكارهم ، ومذاهبهم.
- أنها مستمرة علنية ، وليست مجرد شعور قلبي إلا عند الضرورة.
- أنها مما اتفقت عليه الشرائع ، وليست لهذه الأمة الخاتمة فحسب.
- أن دعامتها التوكل على الله والدعاء كما ذكر في ختام الآية ((ربنا لجيك رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وإِلَيْكَ أَنَبْنَا وإِلَيْكَ المَصِيرُ)) .
- أنه لا فرق في البراء بين قريب أو بعيد مادام قد وحد بينهم كفر أو شرك.

٦ - الدعاء والتضرع : وهو السلاح الذي لا يحق للمؤمن أن يسير في ركاب الحياة بدونه، وقد امتدح الله خليله بدعائه فقال : ((إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ)) وقد تقدم معنى (الأواه) ، ولـــذا تل أن نجد موطنا تذكر فيه دعوة إبراهيم إلا ويذكر معها جانب من تضرعه ودعائه ومن ذلك : ((رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً ...)) ، ((رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ)) ، ((وتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)) ، ((واجْنُبْنِي وبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ)) ، ((رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ ومِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وتَقَبَّلْ دُعَاءِ)) ، ((رَبَّنَا اغْفِرْ لِي ولِوَالِدَيَّ ...)) ، ((رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ...)). إلى آخر ما هناك من الدعوات المباركات ، التي تضرّع بها إبراهيم ، وخلدها القرآن ، فكان قدوة في اللجوء إلى الدعاء.

٧ - تحطيمه للأصـــنـــام : لم يكتفي إبراهيم في دعوته بالكلمة والحجة التي أبطل بها حجج الخصوم ، بل عضد ذلك بعمل كبير ، أقدم عليه بشجاعة وعلو همة ، وهو تحطيم الأصنام التي تعلق بها قومه ، حتى صرفهم تعلقهم بها عن التفكير في حقيقتها ، والنظر في ماهيتها ، فأراد إبراهيم أن يبين عن ذلك بالقول والفعل فكان بيانه القولي الذي شرحنا طرفا منه فيما تقدم ، وكـــان بيانه الفعلي بما أقدم عليه من تحطيم الأصنام ، وجعلها جذاذاً ((إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ)) . والآية هذه تشير إلى مدي البيان الذي أراد إبراهيم إبلاغه لقومه ، فلم تأخذه فورة التكسير بتحطيمها كلها ، بل ترك كبيرها لا لعجز ولا لخوف بل لعلهم إليه يرجعـــون ، فيحقق إبراهيم غرضه من هذا الأسلوب الدعوي الرائع ، وفعلاً لقد كان ما أراده إبـراهيـــم حين قالوا : ((لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ)) وحينها انقض عليهم كالشهاب : ((أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً ولايَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)) وتحقق لإبراهيم مراده حين قالوا :((قَالُوا حَرِّقُوهُ وانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ)) فالآلهة تحتاج إلى من ينصرها ، ويدافع عنها ، وتحقق له كذلك حين (رجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون) ولكنه التعصب الذي ردهم على أعقابهم ((ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ)) .

٢ - الهجرة : ذكر الله تعالى هجرة الخليل في ثلاثة مواطن فقال : ((ونَجَّيْنَاهُ ولُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ)) ((وقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ)) .

فهو أول من هاجر لله - كما ذكره بعض المحققين - وكانت سنة لمن بعده من الأنبياء وأتباعهم ، وممن عمل بها محمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصحبه ، فكانت هذه من ثمرات تلك التجربة الإبراهيمية ولونا من الإقتداء به.

إن الهجرة أسلوب يلجأ الدعاة إليه لأن أرضهم ما عادت تقبل الكلمة الطيبة،فهم يبحثون عن أرض طيبة تحمل دعوتهم ، أو لأن القوم المعرضين بدأوا يناوشون الداعية ، ويوصلون الأذى إليه فهو يفر بدينه من الفتن ((ومَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وسَعَةً)) .

الهوامش :

* [والصحيح أن إبراهيم في هذا الموطن كان مناظرا لقومه لا ناظرا بنفسه ويدل على ذلك:

أ - قوله تعالى: ((ولَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ)) والمراد بالقَبْلية ما كان قبل النبوة على الصحيح، وأي رشد آتاه الله إبراهيم إن لم يكن موحداً مؤمنا بالله.

ب - قوله تعالى: ((ومَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ)) يقتضي نفي الشرك عن إبراهيم في كل مراحل عمره السابقة.

جـ - أن الله ذكر هذه الحادثة بعد إنكاره على أبيه وقومه ، مما يدل على المناظرة.

د - أن الله تعالى ذكـــر القصة بعد أن ذكر منته على إبراهيم برؤية ملكوت السماوات والأرض ليكون من المؤمنين ، ولذلك ذكر الفاء التعقيبية ((فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ)).

ر - أن الله ذكر فيها ((وحَاجَّهُ قَوْمُهُ)) مما يدل على قيام المناظرة بينه وبينهم.
و - أن الله تعالى ذكر في خاتمتها ((وتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)) فقال (على قومه) ولم يقل (على نفسه). وبهذا القول قال كثير من علماء السلف والخلف وهو الذي تدل عليه الأدلة.

الهوامش:

(١)جلاء الأفهام صـ ١٥٩.

من إيجابيات الدعوة الإسلامية
»مقاومة التغريب«

د/ عابد السفياني

التغريب مصطلح يستعمله بعض الكتّاب للدلالة على جهود الغرب في نشر أفكاره وقوانينه ونظمه في أقطار العالم الإسلامى.

لقد بذل الكفار - على اختلاف مللهم ونحلهم - جهداً كبيراً في نشر التغريب الذي يمثله النموذج الغربي في مجالات الحياة المعاصرة في التشريع والنظم الوضعية ، وفي مجال الإعلام ، والاقتصاد ، وفي مجالات أخرى متذرعا تارة بالديمقراطية ، وتارة بالمحافظة على حقوق الإنسان ، وتارة بالمشاركة في تنمية أحوال »العالم الثالث« بشرط الالتزام بتلك النظم نفسها.

وأكبر عائق يقف في وجه »النموذج الغربي« هو تطبيق الشريعة الإسلامية ، ولهذا كانت جهود الكفار تبذل في تغيير مفهوم تطبيق الشريعة.

يقول المستشرق »جب« في كتابه »الاتجاهات الحديثة في الإسلام« ص ٢٦ ،»ليس لدى الإنسان أنظمة كبرى في العقيدة ، والفكر ، والإرادة من شأنها أن تظل ثابتة أكثر من عشرة قرون«.

والبديل عن الشريعة الإسلامية هو بزعمهم انتشار العلمانية :

يقول أيضاً في ص ٧٤ »إن انتشار العلمانية في البلدان الإسلامية طيلة المائة سنة الماضية قد جعل مثقفي المسلمين عرضة لنفس التأثيرات التي زعزعت التفكير الغربي بالنسبة للمسائل الدينية«.

ويرى هذا المستشرق أن تكوين »الرأي العام« على الطريقة الأوروبية عن طريق نشر التعليم »العلماني« أي الغزو الفكري الأوروبي ، وذلك هو السبيل الوحيد لإدخال التطور والتحرر من سلطان الدين ، »وجهة الإسلام« ص ٢١٤-٢١٧.

وعندما يتحدث عن استبدال ، القوانين الوضعية بالشريعة الإسلامية ، وأن ذلك قد أدى إلى تمكن القوانين الوضعية وانتشار النموذج الغربي فإنه يحذر قومه من الاطمئنان القائم على هذه المكاسب ، ويطالبهم بإدخال الاقتناع بها إلى قلب كل مسلم عن طريق التعليم ص ٢١٣ -٢١٤ وهذا الطريق هو »التغريب« وتغيير المفاهيم وأما تغير مفهوم تطبيق الشريعة ، فبدلاً من أن يكون مفهوم الحكم بالشريعة شاملاً لجميع المجالات ، فلا بأس أن يكون قاصراً على جوانب معينة ، وبقية الجوانب يحكمها »التغريب« ، المهم أن يكون له سلطان مع الشريعة.

ولذلك يقول هذا المستشرق - وهو من المستشرقين الذين يعرفون هذا الدين كما يعرفون أبناءهم كما قال الله - تعالى - عنهم : ((الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)) ٢ - الأنعام يقول في كتابه السابق الذكر ص ١٢١ ، »إن قبول القانون الإسلامي كان منوطا بقبول الشريعة الإسلامية ، كما كان ذلك النتيجة الحتمية لكون المرء

مسلما« وبالنسبة للذين يتمسكون بهذا المعتقد تعتبر فكرة تعديل هذه القوانين الأساسية أو إلغائها من باب الكفر ١٢٣ - ١٢٤.

وأمامكم هذه العقيدة الإسلامية التي هي أكبر عائق في وجه التغريب ، لابد - كما يقول هذا المستشرق - من نقد تاريخي خاص ، »فعجز الإسلام من طريق اللجوء إلى عناصر قد سبقت نتائج التغريب وما على العالم الإسلامي أن يعيش من جديد مجمل التطور الذي صادف العالم الغربي الحديث«(١).

وخلاصة ما يخطط له الأعداء للتمكين للتغريب هو أن يصبح النموذج الغربي سائداً ومنتشراً في العالم الإسلامي ، ويكفي أن تبقى معه بعض أحكام الشريعة ، وأما مفهوم التحاكم إلى الشريعة الإسلامية في جميع المجالات - والاعتقاد بأن ذلك واجب ، وأن قبوله شرط لصحة الإسلام فمفهوم يمكن أن يغير ويبدل، ليصبح مقصورا على بعض المجالات، وحينئذ لا يكون قبول الشريعة - في جميع المجالات - شرطا لصحة الإسلام، ولا يكون التشريع من دون الله كفرا ، فيأمن حماة التغريب والقوانين الوضعية من وصمة الكفر ، وهذا ما يريده الاستشراق.

وللمشرعين من دون الله أن يحكموا ببعض أحكام الشريعة ، ويحكموا بالأنظمة القانونية ، ويأذنوا تارة للناس بأن يتحاكموا تارة إلى هذا وتارة إلى هذا ، فالشريعة والحالة هذه ليست حاكمة بإطلاق بل هي محكومة ، والدين ليس كله لله ، بل بعضه لله ، وبعضه لغير الله ، وحينئذ يستقر التغريب في العالم الإسلامي. ولاريب أن أئمة المستشرقين - وهذا أحدهم - يعرفون هذا الدين ، ويحسنون التخطيط للتمكين للنموذج الغربي في العالم الإسلامي ، وقد عملوا لذلك دهرا طويلا.

وإذا أدركنا هذا المكر والدهاء منهم علمنا أن من أعظم إيجابيات الدعوة الإسلامية مقاومة ذلك التغريب ، وقد سخرت الصحوة - ولله الحمد - كثيرا من طاقتها وفي جميع المجالات لمحاربته وتحذير الناس منه ، وتنشأ في هذه المرحلة بالذات أسئلة كثيرة أمام حملات الإبادة التي يتعرض لها المسلمون ، فيقول قائلهم : ماذا يريد الكفار منا؟ ألم تنتشر مذاهبهم وتحكم قوانينهم ، وينتشر سلطانهم ، ويقطعو الطريق على المسلمين كل ما أرادوا أن يتميزوا بشريعتهم، بل ويلاحقوهم بالفساد عن كل طريق؟ والآن وفي هذه المرحلة بالذات - يقتلون بصورة لم يسبق لها نظير ، ويهجرون، ولا خيار لهم، فإما الخضوع للقوانين الوضعية، وعبادة النموذج الغربي، والتمكين لشهواته، وإما تدمير الإنسان المسلم وحقوقه باسم حقوق الإنسان الغربي. والنتيجة أن المسلمين لا حق لهم في الحياة إلا تحت إشراف حقوق الإنسان الغربي، وانتشار مذاهبه وأفكاره، وهذا يمثل قمة الصراع بين النموذج الغربي والشريعة الإسلامية ، فلا عجب أن تبذل الدعوة الإسلامية من خلال علمائها ودعاتها وأنصارها في هذا المجال كل غال ونفيس ، وأن تستنهض همم المسلمين في كل مكان لمناصرتها، وأن تنادي بإخراج آثار التغريب من مجال التربية، والإعلام، والاقتصاد ، وجميع المجالات التي حاولوا التغلل فيها.

ولنضرب أمثلة محدودة تدل على حتمية الصراع بين الصحوة الإسلامية ودعاة التغريب، وأن على جميع المسلمين مناصرة علمائهم ودعاتهم؛ ليتمكنوا من إقامة الدين الحق، وتقديمه لسائر الملل بصورته الشاملة الصحيحة ، لعل ذلك يكون سبباً في هداية الكثيرين منهم للإسلام.

المثال الاول :- يتسلط »النموذج الغربي« لا على الناس ويعطي باسم حقوق الإنسان »الحق« للقوانين الوضعية ، لتتستر على مظاهر الشرك والكفر ، وتمنع الدعوة الإسلامية من أن تنتشر مبادئها، وتعبد ربها، وأن تظلل الأرض بتحكيم شريعته، وفضح دعاة التغريب، الذين يعتبرون قتل المجرم وحشية، وتحريم الزنى تدخل في الحرية الشخصية، والفوائد الربوية ضرورة اقتصادية.

المثال الثاني :- يبذل دعاة التغريب جهودهم لاستمرار الاختلاط والخلاعة ، ومحاربة التستر والفضيلة.

والشريعة الإسلامية تأمر اتباعها بالتستر ، كما قال الله - سبحانه وتعالى -:((قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ)) [النور:٣٠ -٣١].

وحرم الله سبحانه وتعالى الزنى بقوله ((ولا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وسَاءَ سَبِيلاً)) [الإسراء:٣٢].

فهل يقتنع الكفار الغربيون، وغيرهم من دعاة التغريب بأن يسلمو ويتبعوا الشريعة الإسلامية ، وينبذوا الجاهليات التي زينوها للناس؟

وهناك أمثلة أخرى في مجال الاقتصاد وغيره من المجالات لا يتسع المقام لذكرها.

ولقد كان من جهود الدعاة والعلماء والمصلحين أن يبينوا للناس أحكام الشريعة ومقاصدها، ووجوب التحاكم إليها ، ونبذ ما سواها والكفر به ، ودعوة الكفار للإسلام ، ونصحهم وجدالهم بالتي هي أحسن، وقد استفاد الناس من جهود الصحوة الإسلامية التي تواترات بها الأخبار في كل مكان ، والتي أصبح همها إحياء صفات النموذج القدوة - جيل السلف الصالح - ليكون منهجهم هو الطريق العملي لمقاومة أثار النموذج الغربي ، وقد تربى كثير من المسلمين - ولله الحمد - على هذه الصفات، وانتشرت طريقة السلف في مجال الاعتقاد، والتربية، والتعليم ، والصبر ، والورع ، والعطاء ، والبذل ، والولاء ، والبراء، ونشر الدعوة ، والاحتساب ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتعاون على مناصرة الدعوة، وحذر العلماء من الجاهلية الحديثة ومسائلها وقوانينها، ودعوا إلى وجوب إزالتها وتغييرها، وأجمع العلماء أيضاً في هذا العصر على وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية في جميع المجالات، وانتشرت - ولله الحمد - جهودهم عن طريق الكتب، والمقالات ، والأشرطة ، والبحوث العلمية ، والإفتاء والرسائل العلمية ، والمجلات الإسلامية ، وهذا قليل من كثير أُشير إليه مجرد إشارة لأذكّر بالجهد المبارك الذي بذلته الدعوة الإسلامية في مقاومة التغريب، متمنين لجهود العاملين لنصرة الإسلام التوفيق لمزيد من العمل والصبر حتى تزول آثار التغريب من العالم الإسلامي من كل مجال دخلت فيه ، ويحل محلها الأحكام الشرعية والاعتقادات الصحيحة ، ومن المعلوم أن من أحب شيئا تمسك به ، وقدمه على غيره ، وأن من أبغض شيئا تركه ، فيجب على جميع الدعاة بيان الحق للناس ، حتى يؤمنوا بأن الله هو وحده المستحق للعبادة ، وأن شريعته هي الحاكمة على أمورهم بإطلاق ، فيحبوا الله سبحانه وتعالى ، ويحبوا شريعته ورسوله -صلى الله عليه وسلم- : ((قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ واللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)) [آل عمران:٣١] ، وبيينوا لهم ويبشروهم بأن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله.

وفي الوقت نفسه يجب عليهم أن يحذروهم من أسباب الشرك والكفر وأثاره وقوانينه، فيبغضون أثار »التغريب« والقوانين الوضعية وجميع مظاهر البدع والشرك ، القديم منها والجديد، ليعرف ذلك الجميع، وعلى الدعاة إلى الله والمصلحين بذل الجهد والصبر حتى يجتمع الناس على عبادة الله وحده بلا شريك، ويحكموا شريعته في جميع أمورهم، وحتى يزول سلطان الجاهليات والأديان الباطلة والفساد الذي صنعته وزينته للناس الأفكار المنحرفة والأهواء المضلة ، ويكون الدين كله لله ، ولا يكون منه شيء للأرباب المتفرقين ، وللشرائع المتفرقة ، كما قال يوسف -عليه السلام- وهو يبين هدف دعوته للناس :((يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ

أَمِ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إنِ الحُكْمُ إلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ))[يوسف:٣٩،٤٠].

الهوامش:

(١) الاتجاهات الحديثة في الإسلام ١٧٥ ، وانظر مناقشة هذه الأفكار بالتفصيل في كتابي المستشرقون وموقفهم من ثبات الشريعة.

نصوص شعرية

عبوس

عبد الوهاب عبد الله

- أ -

لماذا أريد؟!
لماذا الهدير يُمزِّق ضعفَ الوليدْ؟
ويبغي المزيدْ!!
ويُنبِت جمرَ الوريدْ!
أيبقى اللهيبُ على بابنا ينتظرْ؟
ألم ينتصرْ؟
أيَخنقُ عاصفةَ الجمر صمتٌ أشِرْ؟!

- ب -

هـــــراءٌ
صباح السلامْ !!
وريشُ الحمائم يا برقعاً
قاتماً في الظلامْ
هـــــراءٌ
صباحُ الكلامُ
أيصحو المسافرُ عند اصطدامِ
السفينة؟
ويحظى من الرحلةِ الحالمةْ
بماءٍ وملحْ !!
ويَطرحُ عن كاهليه شجونَهْ
ويغفو بقاع المحيطِ
ويُكفى المئونةْ!
سلامٌ لعصف الرياحْ
سلام يُهُزُّ جذوعَ المطرْ

سلامٌ لموج الرمالْ
سلام يبث الدماءَ
حريقَ السؤالْ
هــراءٌ هــراءٌ
هراءٌ صباحُ السلامْ
سيورقُ فينا صباحُ اللهيبْ
ويَنتحرُ الليلُ فوق الكثيبْ
ويعلو الحبيبْ
ليخضب من دِمِه... قدميهْ.

نصوص شعرية

مدرستي الكبرى

الشيخ : عائض القرني

أنــا الــحــجـــاز أنا نجد أنا يـمــن   أنــا الجنوب بها دمـعـــي وأشجاني
بالشام أهلي وبـغــــداد الهوى وأنا بالـــرقمتـين وبالفسطــاط جيرانـي
وفي ربـى مكـــة تـاريـخ مـلـحـمةعلى ثـراهـــا بنيـنـا العالم الـفـانـي
دفنت في طيبة روحـــي ووالـهـفــيفي روضة المصطـفـــى عمري ورضواني
دمي تصبب في كـابـول مـنـسـكـبـاًودمـعـتـي سـفـحـــت في سفح لبنان
فـأيـنـمـا ذكـــر اسم الله فـي بلـد   عددت ذاك الحمى من صلب أوطاني
والوحي مدرستي الكبرى وغـار حرا   مـيـــلاد فجري وتوحيدي وإيماني
بـدر أنــا وسـيــــوف الله راعفـة كم حـطـمـت من عنيد مـارد جاني
كـتـبـت تـاريـخ أيامـي مـرتـلـــة فى الـقـادسـيـة لا تـاريخ شـــروان
ومـــا اسـتـعــرت تـعـالـيـمـا ملفقة مـن صــرح واشنطن أو رأس شيطـان
ومــا سـجـدت لغيـر الله في دعـــة ومــا دعــوت مع مـعبـودنـا ثاني
ومـــا مددت يدي إلا لخالـقـهـا   وما نـصـبـت لـغـير الحق مـيـزانـي
فقبلـتـي الكـعـبـة الـغـراء يعشقـهـا روحـــي وأنوارها في عـمـق أجـفـاني
ولـيـس لى مطـلب غير الذي سجدت   لـوجـهـه كائـنـات الإنـس والجـان
لـيت الـمـنـايـا تـنـاجيني لأخبرهـا   أن الـمـنـايـا أنـا لا لـونـهـا الـقـانـي
لــيـرم بـي كـل هول فـي مـخـالـبـه مـا ضـرنـي وعـيـون الله ترعـانـــي
ممـزق الـثـوب كاسى العرض ملتهبٌ   أنـعـــى الـمـخـاطـر في الدنيا وتنعاني
وعـــزم عـمــــار فـي دنيا فـتـوتـه أسـقــي شـبــابي من ينبوعه الداني
عـصـــى الـكـلـيـم كـفـى كي أهش بها عـلـــى تـلامـيـــذ فــرعون وهامان
في حسن يوسف تاريخـي ومـلـحمتي   من صنع خالد لا من صـنــع ريجان
داود ينـسـج درعـــي والوغى حمم لا يـخـلـــع الــدرع إلا كف أكفانــي
دعـنـــي ألـقـــن قـــومــاً ما لهم همم إلا عـلـــى العزف من دان ومن دان
قوم مـخـــازنـهـــم نهب ومطعمـهـم سلبُ موكـبـهـــم من صـــف فئران

يا جيـل يا كـل شهم يا أخا ثقة يـا ابـن العقيـدة من سعد وسلمان
يا طارقاً يـا صلاح الدين يا ابن جلايا عين جالوت يــا يرمـوك فرقاني
يا بائعـي الأنفـس الشماء في شهبمــن الـرمـــاح على دنيا سجستان
يا من بنوا المجد من أغلى جماجمهمفي شقحب النصــر أو في أرض أفغان
يــا من سقوا دوحة الإسلام من دمهمــن كل أروع يوم الروع ظمـــآن
يا صــوت عكـرمـة المبحوح يقطعه قصـــتف الـعـوالـي من سمر ومران
هـيـا إلـى الله بـيـعــوا كـــل فانية فـصـوت رضــوان نـاداكم ونـاداني

كامب أريحا

التحرير

في الوقت الذي كان » جنين « السلام الذي سمى »بغزة ، وأريحا : أولا« يخرج إلى النور ويرى الحياة ، كان أبواه يمهدان لحفلة القدوم بطريقة مختلفة.

الأب الإسـرائـيـلـي هــو الـطــرف الأقــوى والأغنــى والأقدر على رسم خريطة الأحداث وتضاريسها، بـيـنـمـا كـانـت المنظمة الأم - كالعادة - تتقن فن الوقوف في الجانب الخاسر ٠٠٠ ، المنظمة/ الأم كانت تضع آمال القضية المركزية الأولى للعالم العربي وتاريخها وعرق الأمــــة ودمـهـــا وفداءها على طاولة المباحثات السرية حيث أنها تحلم » بـطـفـل، بعد أن شــارفــت عـلـى بـلـــوغ ســن اليأس، وهي التي تعد الجميع بالمولود في كل عام، ومع كل مناسبة، لكن عوارض سن اليأس قاسية واضحة مؤلمة، وهذا ما دفع الأصدقاء قبل الأعداء إلى التهامس بأن السيدة / المنظمة عاقر.. عاقر.. عاقر....

حـتـى أشــد الـتـقـدمـيـين الماركسيين لم يستطع أن يخفي تشاؤمه وحنقه، فكتب خطاب استقالته إلى الزعيم، وأرفقه بقصيدتين تقول إحداهما :

» لم نعد قادرين على اليأس أكثر مما يئسنا
والنهاية تمشي إلى السور واثقة من خطاها «(١)

نـعـم الـجـمـيـع يـتـحــدث عن اليأس، وسنه، ومظاهره وأعراضه، وحتى يحافظ الزعماء التاريخيون على مناصبهم ومسؤولياتهم، فقد خرجوا بحل عبقري لم يسبقوا إليه.

هذا الحل يقول: لابد من إنجاب طفل حتى ولو كانت ملامحه إسرائيلية صارخة، وهكذا ولــد الـعـار في صيف لافح، وفي ليالي أغسطس الخانقة، وتسربت أنباء الوليد/ الفضيحة، الـذي اعـتـبـرتــــه الأم دليلاً على عنفوانها، وعنوانا لقدرتها على البقاء حية، حتى ولو سـفـكـت في سبيل ذلك سبب بقائها ، وأُس وجودها : قضية الشعب الفلسطيني. أما الولد المـتـعـجـرف فقد كان يتحدث بلهجته المعتادة شاتماً إياها مهدداً بوأدها أسلوبه الرديء... ومع أن المنظمة/ الأم أخذت في كيل الـثـنــــاء والمدح، ورسم صورة مشرقة باهرة زهرية عن الغد القادم في ظل حراب صهيون ، فإن إسحاق رابين قد أفسد عليهم متعة الاحتفال، وها هو يصرخ ، فيقول: »كثيرون حاولوا أن أعترف بالمنظمة قبل هذا الاتفاق، لكـنـي أقول لهم الآن: إن المرء لا يبيع قبل الحصول على الثمن، وقد حصلنا عليه. إنـــنـــا وقـعـنـا اتفاقا لن يزال بموجبه أي مستوطنة إسرائيلية ، وسنصر على إبقاء »القدس« عاصمة أبدية لإسرائيل ، ثم إنه في حالة تدهور الأوضاع ستعود الأمور على ما كانت عليه !!

إننا لن ندفع الثمن الذي دفعته ليكود في اتفاقيات كامب » دايفيد « وأضاف في كلمة ألقاها في ٤سبتمبر ١٩٩٣ في عهد وايزمال للعلوم وبعيد إعلان الاتفاق الإسرائيلي - الفلسطيني: » إن على اليهود أن يصيغوا السلام مع الأعداء ، وأحيانا مع أعداء سفلة «(٢).

وفى ظل الحديث عن علاقة وتعاون ومشورة طفح بها اتفاق خروج الجنين إلى النور بدا واضحا من هو الطرف العاجز المستسلم ، بل الخائر القُوَى الذي يصف جلاديه وقاهريه ومهينيه بأنهم شجعان وأصدقاء ومتفهمون للأوضاع وبين الطرف الآخر في هذه العلاقة المثيرة للجدل ، والذي يصف شريكه بالسفالة ، والنذالة ، والهمجية...

سفر الانهيار أم أُم الاتفاقيات؟ :

قبل الدخول في متاهات الاتفاق، وتفصيلات الاتفاقية، هناك حقائق ثابتة ناصعة، لا يستطيع الفريق المؤيد أو الفصيل المعارض للاتفاقية أن يحجبها ، أو يلغيها من الاطار التاريخي الواقعي والتحليلي للقضية الفلسطينية ، وهذه الحقائق والمعطيات لن يستطيع أحد أن يشكك فيها ، أو في أهميتها. ولعل المرتكز الأول الذي يصلح مدلفا للموضوع، ومفتاحا له هو أن يعي الجميع - مؤيدين ومعارضين - أن العدو الذي نتحدث عنه لم يهبط علينا فجأة من سطح المريخ ، أو تجاويف المشترى ، إنه عدو حدثنا عنه رب الأرباب ، وخالق الأرض والسماوات ، عدو شاء المولى - عز وجل - أن يواجهه أهل هذا الدين، وهو في بداية مساره، ثم واجهوه مرة بعد مرة، وأثبتت كل هذه المواجهات حقائق صارخة ، لا تجدي معها تصريحات الساسة ، أو نخاسة السلام ، أو المتاجرين بالأوطان. حدثنا المولى عنهم فقال: ((لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اليهود والَّذِينَ أَشْرَكُوا)) ، وصدق الله ، فقد أرانا إحدى آياته البينات الواضحات في هذا العصر حينما أذاق الله أمة الإسلام الشاردة ألوانا الهول والذل على أيدي الصهاينة اليهود، الذين طردوا المستضعفين وحرقوا الديار، وجزروا الآمنين، واستولوا على بيت المقدس ، وحرقوا المزارع ، وشردوا الأحرار ، وظهر حقدهم وعداؤهم لهذا الدين وأهله ، كما أبانت الآيات أن المكر يجمع أهل الكتاب ، ولذا جاء النص القرآني المعجز جامعاً لهذين الفريقين معاً ، وهي آية أخرى تحققت في هذا العصر ، حيث لم ير تاريخ البشرية تعاوناً وتنسيقاً بين اليهود والنصارى كما نرى اليوم ، وصدق الحق القائل : ((يا أيها اللذين آمنوا لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ والنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ومَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ)).

أمام هذه الآيات المزلزلة ينبغي أن نعرض القضية برمتها :

- قضية الحلف اليهودي النصراني ، الهادف إلى تجريد الأمة من هويتها ومعتقدها...
- ومصير المسارعين إلى أعدائهم ، يقدمون رقابهم ، لتجز في سلوك هستيري ، يرى النار جنة ، والهلاك نعيماً ، والموت حياة سرمدية...
- ومصير الصابرين العاملين بصمت ، لتحقيق وعد الله بفتح من عنده.

ثم على ضوء ما نستعرض حقائق قائمة ، تحمل تفاصيل المشهد التحليلي :

أولاً : إن الكيان الصهيوني على الأرض المحتلة يشكل أبشع عملية استعمارية في تاريخ العالم المعاصر ، حيث وظفت القوى الصهيونية والغربية المشاعر الدينية والاستعمارية في سبيل إقامة كيان لا يمت إلي المنطقة وثقافتها وهويتها بصلة ، في سبيل إضعافها ، وفرض السيطرة الصهيونية الصليبية عليها. ورغم مرور ثلاثة أرباع القرن على هذه الإشكالية ، وبالرغم من نيل كثير من الشعوب المستضعفة والمستعمرة حقوقها - وآخرها الشعب الأسود في جنوب إفريقيا - فإن مأساة الشعب الفلسطيني ظلت خلال الحرب الأولى والثانية ، والحرب الباردة وما تلاها تأخذ نفس النمط :

دعم المشروع الصهيوني بلا نهاية من قبل الدول الغربية - لا سيما بريطانيا وأمريكا وروسيا - بطريقة تدل على أن المخطط المرسوم لا يتأثر حتى بأهم المعطيات الدولية والإقليمية.

ثانياً : إن شعبا قد طرد من أرضه وسلبت ممتلكاته في ظل المخطط الصهيوني وإن ثقافة يهودية توراتية عنصرية قد أزاحت ثقافة عربية إسلامية ، وأخذت تعمل يد التغيير في كل شيء انطلاقا من صراع حضاري بين اليهودية المدعومة بفهم ورؤية إنجيلية ، وبين الإسلام الذي كان يعيش فترة تراجع رهيبة في بداية القرن... هذا الصراع الحضاري انتهى في جولته الأولى بانتصار اليهود بلا شك، وذلك لضعف المسلمين وشتاتهم، وبعدهم عن دينهم ، فكان طعم الهزيمة والانكسار يملأ الأفق : ضُيعت يافا وحيفا ، وانتصبت تل أبيب رمزاً يهودياً موحياً ، وكانت الفاجعة أن سقطت القدس بنصفها الغربي ، ثم سقطت كاملة بعد أقل من عشرين عاماً...

ثالثاً : إن المجتمع الدولي بأدواته الهزيلة المضحكة قد أدان دولة الصهاينة أكثر من مرة، وبدا واضحا أن هذا المجتمع لا قيمة له ولا وزن إذا كان الأمر يتعلق بجزاري الشعوب الإسلامية، واتضح للشعب الفلسطيني أنه لا سبيل لاستعادة حقوقه سوى بانتفاضة شعبية ، ترتكز على معاني الجهاد ، ومنطلقات الإسلام ليس إلا .

رابعاً : صادف بروز الانتفاضة في عام ١٩٨٧م إفلاس الحلول العلمانية، الوطنية والتلفيقية. لقد كانت منظمة التحرير الفلسطينية المثال الأوضح لحالة الإفلاس العلماني، البعيد عن خط الإسلام ، ما شكلت حالة إدانة واضحة للواقع السياسي في العالم العربي، الذي يشكو من الاغتراب الفكري والسياسي ، والتبعية للقوى الخارجية ، وسوء القيادة، وقصر نظرها.

خامساً : لأول مرة منذ بدء الصراع يتبنى الشعب الفلسطيني - لا سيما في قطاع غزة - حلاً إسلامياً للمشكلة ورؤية عقدية للصراع. ومن السخرية أن دماء شباب الانتفاضة وجهادها شكل الوقود الحقيقي للحل السلمي المطروح ، فالجميع يعرف أنه لولا الانتفاضة لما فكرت إسرائيل في طرح الحل السلمي ، بل ولما نادت بالانسحاب من غزة دون شروط.

إذن فهذه المعطيات السابقة تدلل بصورة قاطعة على وجود هوة عميقة بين فهم إطار المشروع الغربي/ الصهيوني المثقل بأنهار الدم وضحايا قنابله العنقودية ، وعجرفته العسكرية ، وآلته الصماء ، التي امتدت آلتها من تونس حتى المفاعل النووي في العراق ، وبين المقاومين من رجال المنظمة ، الذين نجحوا في تحويل القضية إلى قضية السيادة على نظافة المدن: وحصص الدراسة! وملاحقة المجاهدين! اللذين يرون في الصراع سلسلة حلقات الصراع الحضارى، الذي يتحدث الغرب ومنظروه عنه بلا حياء أو مواربة، ويركز على أمور معينة بإيحائية شديدة ، تصل إلى حد المباشرة ، كما يحدث الآن في الحديث عن القدس ، التي تشكل رمزا للماليزي ، كما تشغل بال السنغالي المسلم ، والتي جعلها الاتفاق سلعة كاملة للتفاوض في مرحلة لاحقة ، بينما يصرح الجانب الأقوى في وجه اللاهث عرفات : » القدس عاصمة أبدية لإسرائيل «!

لقد وصف أحد مساعدي عرفات الاتفاقية بأنها أم الاتفاقيات « اقتباسا من القطب العلماني والصديق الحميم لعرفات : صدام حسين ، بينما كان أشد المقربين من عرفات يشهدون - والحق ما شهد به حاشية عرفات الماركسية - بأن الاتفاق جزء من سفر يكبر يوما بعد يوم هو (سفر التنازلات)! :

» من سيُنزل أعلامنا : نحن أم هم

ومن سيتلو علينا معاهدة الصلح... «

والجواب إنه المناضل الختيار الأراجواز أبو عمار ، الذي يخاطبه زميله في التيه مضيفا:

» لم تقاتل لأنك تخشى الشهادة ، لكن عرشك نعشك فاحمل النعش كي تحفظ العرش يا ملك الانتظار. إن هذا السلام سيتركنا حفنة من غبار «(٣)

- ياسقى الله الكامب الأول!

ما بين الكامب الأول (كامب ديفيد) والكامب الثاني (كامب أريحا) هناك فاصل زمني يقارب الخمسة عشر عاما ، كما أن هناك مساحة عريضة من التنازلات والاستسلام ، تجعل من (كامب ديفيد) إنجازا بكل المقاييس عند مقارنته بالاتفاق الأخير... ، وبالطبع فإن عرفات وجوقته قد غيروا من إيقاع نشيدهم المبحوح، فبعد الهجاء، والشجب، والاستنكار، والنواح، واللطم، والتخوين غدت الخيانة إنجازا، والهجاء مدحا، والشجب احتفالا ، والنواح » دبكة «!

الكامب الأول الذي رفضوه عادوا ليقبلوا بمعشاره أو أقل، وهناك أسباب لا يمكن إغفالها، تدعو المنظمة وقيادتها المعزولة للقبول بهذه الاتفاقية ، وأهمها ضعف المنظمة ، وابتعاد الشارع الفلسطيني عنها ، بل وصل الأمر إلى القمة ، حيث استقال الشيخ السائح ، ثم هدد ثلاثة من الوفد المفاوض بالانسحاب، ثم استقال محمود درويش ، وشفيق الحوت: عضوي اللجنة التنفيذية، للمنظمة مما دفع مجلة الأيكونمست البريطانية للقول:" لو لم يعقد عرفات هذا الاتفاق اليوم فإنه حتما لن يكون المتحدث باسم الفلسطينيين بعد عام واحد من الآن ، حيث أن شعبية المنظمة آخذة في التبخر«".

وفي الجانب الإسرائيلي فإن الاتفاق يحل لها العديد من المشكلات الخانقة، كوجود مناطق توتر مكتظة كغزة التي شكلت بؤرة صداع مستمر لإسرائيل ، وربما شكلت المناطق الجديدة »أرضا لإلقاء العناصر المشاغبة ، بدلا من طردهم للبنان ، حيث يضر هذا بسمعة إسرائيل ، التي تريد مأمورا فلسطينيا كعرفات ، يقوم بدور تأديب أعداء السلام« .

ولا شك أن الوضع المالي المتأزم للمنظمة ساهم في إسراعها إلى عقد صفقة يخرج بها فريق عرفات بأقل الخسائر ، وفي الوقت ذاته يرى بعض الفلسطينيين - لاسيما النافذين في المنظمة - أن عرفات أوجد هذه المشكلة طمعا في تركيع الشعب الفلسطيني ، وتجويعه للقبول بأي حل يكفل زعامته ! انطلاقا من الحكمة التي تؤمن بها الزعامات العربية منذ العصور الجاهلية »جوع كلبك يتبعك «.

لكن التركيع بهذه الصورة لن يأتي بالنتائج المطلوبة، خصوصاً إذا عرفنا أن الشعب الفلسطيني مسيَّس ، وصلب العود ، لا سيما في السنوات الأخيرة.

إن الاتفاقية التي وقعت تترجم مرحلة جديدة يُراد للمنظمة وعرفات أن تشارك فيها ، من أجل خنق الخيار الإسلامي ، وهذا ما صرح به المسؤولون الإسرائيليون الذين وضعوا الاتفاق كمخرج لتضاؤل عرفات وجماعته ، حيث العدو المشترك (كما يصورون) للمنظومة العلمانية والصهيونية يزداد ظهورا وشعبية. لقد رضي عرفات - الجائع للزعامة - بقبول دولة ال ٤٠٠ كم ٢ المسلوبة السيادة ، والبعيدة عن القدس والتي أججت من حدة الخلافات في البيت الفلسطيني ، وامتدت لتشغل التفاعل الغاضب في قلب كل مسلم يتعبد الله بحب بيت المقدس ومسرى المصطفى - صلى الله عليه وسلم-.

لقد لخص شيخ فلسطيني هذه المأساة بقوله : » إن مصير المسلمين في فلسطين سيكون مشابها لمصير مسلمي البوسنة...« وإحقاقا للحق فإن علي عزت بوجوفتش يرفض حتى الآن اتفاقية الدويلة الممسوخة ، التي تشكل إنجازا بجانب دويلة أريحا ، حيث إن غزة مغرم ولست مغنما.

وهذا ما دفع إدوارد سعيد المفكر النصراني الفلسطيني الأمريكي للقول : »إن المرء يتساءل : لماذا هذا الضعف أمام المشروع الإسرائيلي الذي يتطلب نوعا من السجود المطلق أمام الإسرائيليين والأمريكيين إلي هذه الدرجة؟ ونحن شعب مقاتل... «

إنها مأساة القيادة المتعبة المريضة المضطربة ، المنحرفة البعيدة عن نبض شعبها ، التي خاطبها أحد قيادتها في لبنان قائلا : » إذا كنتم تعبتم من النضال فتنحوا لغيركم أو أتركو النضال لغيركم «

الهوامش :

(١) من قصيدة الشاعر الفلسطيني الماركسي محمود درويش بعنوان (للحقيقة وجهان والثلج أسود).
(٢) وكالات الأنباء ٤ / ٩ / ١٩٢٣.
(٣) قصيدة : (للحقيقة وجهان والثلج أسود) لمحمود درويش ، وقد قدمها مع خطاب استقالته.

نظرة عابرة على
واقع المسلمين المعاصر في الهند

أحمد بن عبد العزيز أبو عامر

(١)

المسلمون في الهند أكبر الأقليات في العالم ، إذ يزيد عددهم على ١٢٠ مليون نسمة في بحر من السكان الوثنيين من هندوس وسيخ وبوذيين وغيرهم. وكانت وجهة نظر بعض علماء ومفكري المسلمين في الهند قبل الاستقلال عدم تقسيم البلاد بين المسلمين وغيرهم ، وكان على هذا الرأي العلامة : أبو الكلام آزاد ، والعلامة : أبو الأعلى المودودي ، وغيرهما. لكن الرأي الآخر المنادي بالتقسيم وإقامة دولة مستقلة للمسلمين هي (باكستان) قد تَغلَّب فيما بعد ، وبقي من بقى من المسلمين في الهند أقلية ، مما أفقدهم الكثير من عناصر قوتهم. ومعاناتهم اليوم - التي سأشير إلى بعض منها فيما بعد -إنما هي نتيجة طبيعية لذلك التقسيم ، الذي انقسم بموجبه المسلمون في الهند إلى قسمين كما هو معروف. والحق أن المسلمين في الهند هم أحسن شعوبها خلقاً وتعاملاً ، ويتميزون عن غيرهم من شعوب القارة الهندية بسمات مميزة منها :

١ - الكرم وبذلهم ما يستطيعونه لإكرام ضيوفهم ، مع ما يعانيه أكثرهم من فاقة وضعف حال ، وهذه الخصلة اكسبتهم إعجاب غير المسلمين ، ودفعتهم للإسلام إعجابا بهذا الخلق الرفيع ، وقد ذكر (أبو الحسن الندوي) صوراً من تلك المواقف في كتابه : (المسلمون في الهند).

٢ - حبهم للإسلام، ولنبيه عليه السلام، ولديار الإسلام لا سيما (الديار المقدسة)، وتمردهم على العنصرية والنزعات القومية والوطنية الضيقة ، وتفاعلُهم مع إخوانهم المسلمين معروف وملموس.

٣ - امتيازهم بأخلاقهم وأدائهم لأعمالهم على أحسن وجه ، ومجانبتهم لرذائل الأخلاق في تعاملهم.

٤ - بسبب كثرة الطرق الصوفية في بلادهم تأثر الكثير منهم بها وبما هى عليه من غلو في الصالحين والتمسح بالأضرحة والقبور ، وبخاصة العامة منهم من مريدي تلك الطرق المبتدعة.

(ثورة الهند الكبرى ١٢٧٣ - ١٨٥٧م) :

بدأ ضعف الدولة المغولية المسلمة الحاكمة آنذاك للهند منذ أواخر القرن السابع عشر الميلادي ، حينما بدأت الأحوال تتغير بتدخل (شركة الهند الشرقية) الإنجليزية ، التي سيطرت على معظم أنحاء الهند في بداية القرن التاسع عشر الميلادي ، وانحسر أمر المملكة المسلمة في العاصمة (دهلي) وبالذات في (الحصن الأحمر) ، وأمام هذا التدخل المريب تنادى العلماء والدعاة للجهاد ضد أولئك الغزاة ، وتفجرت الثورة وامتد لهيبها ، واستولى المجاهدون والأهالي على معظم الأماكن الاستراتيجية ؛ حتى كادت السلطة الإنجليزية تسقط أمام عنفوان الجهاد ، إلا أن الإنجليز ومن بقى معهم من الجيش الهندى استطاعوا أن يمسكوا بخناق المجاهدين ، وان يلتفوا عليهم عام ١٢٧٣ هـ بما لديهم من إمكانيات عظيمة تفوق ما لدى المسلمين ، وبذلك تلاشت المملكة المسلمة من خارطة الهند ، واستولى الإنجليز على الحكم وانتهى حكم الشركة الإنجليزية. وقد سام الإنجليز المسلمين

سوء العذاب ، وصادروا أموالهم ، وانتهكوا حرماتهم ؛ لأنهم كانوا في طليعة الثورة ضدهم ، فخططوا للقضاء على المسلمين قضاءاً مبرماً بوسائل منها: إبعادهم عن المناصب الحكومية ، ووضع نظام تعليمي يصادم دينهم وصارت كلمة (وهابي) لفظة يخوف بها المسلمون، فاستغل الهندوس ذلك الموقف الحرج للمسلمين ، فانتقموا منهم شر انتقام ، وتحولت حياة المسلمين الدينية والسياسية تحولاً كاملاً للأسوأ ، وبقى العامة لا قادة لهم حينما انقطع جل العلماء للحلقات والزوايا بينما الأعداء يستولون على الأراضي بالحديد والنار ، وصار المسلمون في حال لا تسر الصديق حيث أصبحو فئتين متناقضتين هما :

أ - فئة آمنت بالعلوم الغربية ، ورأت الأخذ بالحياة الغربية على علاتها سبيلا للنهضة.

ب - فئة أخـــرى رأت التمسك بما ورثوه من علوم جامدة وأساليب متوارثة رأت أنه لا يمكن العدول عنها.

وكاد الدين يضيع بين جاحد وجامد كما سنرى ، ويمكن تلخيص التيارات والحركات التي سادت بين المسلمين بالهند كما يلى :

أولا : حركة السيد أحمد خان :

لما رأى الرجل انهيار الحكومة المغولية المسلمة ، وإخفاق الثورة الكبرى ، واطلع على أسباب ذلك الإخفاق ، ورأى سطوة المستعمر الذي سيطر على مقاليد البلاد وهوان شعبه ، ولما كان له سابق علاقة بالإنجليز بحكم عمله معهم أعجب بمدينتهم ؛ فصار يدعو لتقليدهم والسير على منوالهم ، والحث على التشبه بهم في عاداتهم وأساليب حياتهم. وقد أثر عنه قوله: »لابد من قبول الحضارة الغربية بكاملها حتى لا تزدرينا الأمم المثقفة ، فأسس كلية (عليكرة) الشهيرة، التي أصبحت فيما بعد جامعة كبرى، وشرع الرجل في تفسير القرآن محرفا الكلم عن مواضعه ليوافق ما لدى فلاسفة الغرب ؛ فأنكر المعجزات والجن وتعدد الزوجات وغير ذلك مما هو معروف لدى أصحاب المدرسة العقلية.

- جوانب الضعف في منهاج الرجل : تبين من استقراء منهج الرجل مظاهر ضعفه المتمثلة فيما يلي :

١ - نقله المنهاج التعليمي الغربي بحذافيره من دون إخضاعه لمبادئ الإسلام ، وتجاهله لطبيعة المجتمع المسلم الذي يريد إصلاحه والنهوض به.

٢ - اقتصر في منهاجه التعليمي على اللغة والآداب ، ولم يعن بالعلوم والفنون التطبيقية العناية الواجبة ، بل عارض ذلك بشدة بدعوى أهمية الثقافة الفكرية على غيرها ، وهو في ذلك واهم ولا شك.

لقد تنبه السيد أمير علي الزعيم الهندي المسلم لم اعترى خطة السيد أحمد خان من قصور، ومع إيمانه بالمنهج التربوي الثقافي في الإصلاح إلا أنه أبرز الدور السياسي بتأسيه عام ١٨٧١ م (الجبهة الوطنية الإسلامية) للدفاع عن حقوق المسلمين بالهند ، وتحديد وضعهم السياسي بما يتفق وعددهم ، وأهميتهم ، وتاريخهم وتمثيلهم عادلا. وفي هذه الظروف ظهر الزعيم المسلم أبو الكلام آزاد وكان له من ثقافته الإسلامية والعصرية ما مكنه من بلورة برنامج إصلاحي متكامل لمواجهة مشكلات المسلمين الخطيرة ، وكانت مجلته (الهلال) لسان حال حزبه. ومما يؤخذ عليه نزعته القومية التي جعلته يدعو إلى تعاون المسلمين والهندوس ضد بريطانيا.

ثانياً : مدرسة ديوبند الإسلامية :

وكان لمدرسة السيد أحمد خان ردود فعل معاكسة لدى بعض العلماء المسلمين ، الذين رأوا فيها خطرا على مستقبل الإسلام وأهله بالهند ، وضياعا لشخصيتهم بتقليدهم لأعدائهم ، لاسيما بعد سطوع

نجم المدرسة السلفية بشخصي الشيخ : أحمد السرهندي والشيخ : أحمد بن عرفان - اللذين استشهدا في الجهاد ضد الإنجليز - فآثر أولئك المشايخ فتح مدارس دينية في القرى والأمصار ليس للحكومة عليها يد ، فكانت نواتها مدرسة ديوبند التي نمت وترعرعت برعاية أهل الرأي من علماء الكلام ومتعصبة الحنفية ، الذين فتحوا باب التأويل للحديث لترجيح مذهبهم، وتأثروا بمثل الشيخ الكوثري الذي ناصب أهل السنة العداء ، وهذا ما ظهر في كتابات علمائهم : حبيب الرحمن الأعظمي ، ويوسف النبوري ، وأنور شاة الكشميري ، ولم يرضوا بأي تعديل أو تغيير في مناهجهم لمواجهة عواصف التغريب والإلحاد، ومن متأخري هذه المدرسة (جماعة التبليغ) ومن أشهر رجالها الشيخ : محمد زكريا مؤلف (تبليغي نصاب) المحشو بالشركيات والطوام ، وكذلك محمد حسن السنهلي ، وحسين أحمد المدني ، وغيرهم : ومازال لكثير من علماء هذه المدرسة مواقف مغرضة وحاقدة ضد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لا لشيء إلا لكونها فضحت منهجهم القبوري وعقائدهم الشركية : ولمزيد من الاطلاع على هذا الاتجاه انظر كتاب (دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب في القارة الهندية بين مؤيديها ومعارضيها) للأستاذ أبو الكرم بن عبد الجليل السلفي وكذلك كتاب الشيخ عبد العزيز بن عبد اللطيف عن مناوئي الدعوة السلفية بنجد ، وهما مطبوعان.

ثالثاً : المدرسة الوسطى الإصلاح :

لما استمر حال تلك المدرستين على ما هما عليه من منطلقات فكرية تخرجت أجيال من الاتجاهين يكره كل منهما الآخر ، مما جعل الشعب المسلم في الهند يضيق ذرعا بالشقاق والصراع بينهما ، فنادى نفر من العلماء الصالحين وذوي الرأي بالاعتدال ، وضرورة الجمع بين الأصالة والمعاصرة فكان نشوء (ندوة العلماء) عام ١٣١٠ هـ بعد ربع قرن من نشوء عليكرة وديوبند حينما اجتمع أولئك النفر من العلماء برئاسة الشيخ محمد علي المونكيري الذي تبنى فكرة (ندوة العلماء) وتولى تأسيسها ، ووضع قواعدها في جلسة حضرها ١٤ من كبار العلماء بمدينة (كانفور).وأيدوا الفكرة بالإجماع ، وتم التأسيس لها لتكون جبهة قوية لمواجهة أخطار الحضارة الغربية وقمع مفترياتها ، وردّ أسطورة (فصل الدين عن الحياة) وإعادة ثقة المسلمين بدينهم الخالد ومستقبلهم المشرق ، وأدرك الشيخ المونكيري أهمية إصلاح التعليم، وضرورة وضع نظام شامل متزن يجمع بين التربية والتعليم ، وبين أصالة العلوم الإسلامية وأهمية العلوم التطبيقية ، فوضع خطة لتأسيس (دار العلوم) وتم عرضها على المجلس التأسيسي في١٣١٣/١/١٧فوافقوا عليها بالإجماع.

ولما اتسع العمل على جهود الشيخ المونكيري قيض الله له رجالا أكفاء ذوي خبرات وفي مقدمتهم العلامة شبلي النعماني الذي أشرف على نظام التعليم وعلى تنفيذ برامجه ومراقبة سيره ، فاستطاع أن يكسب لها شهرة واسعة. وما لبثت هذه الجامعة فيما بعد أن خرجت أعلام الإسلام المعاصرين في الهند ، ومنهم : سليمان الندوي ، ومسعود الندوي ، وأبو الحسن الندوي ، وغيرهم كثير بن العلماء العاملين ، ومن أشهر مطبوعات هذه المؤسسة : مجلة (البعث الإسلامي).

رابعاً : المدرسة السلفية ودورها في حفظ العقيدة :

حينما ضعف الاهتمام بالحديث وعلومه في البلاد العربية وكاد يتلاشى قيض الله له الحفظة من العلماء بالهند ، حيث أسست مدارس خاصة بالحديث وعلومه منها : مدرسة شاهي بمراد آباد ، والمدرسة الأحمدية في لهريا سراي ، والمدرسة الرحمانية في دربهنكا ، وغيرها.

ومن أشهر علماء المدرسة السلفية بالهند الشيخ العلامة : ولي الله الدهلوي الذي درس السنة على علماء الحرمين أمثال أبو طاهر الكردي ، و محمد حياة السندي أستاذ الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) وقد سار أبناؤه على نهجه السلفي ، واعتنوا بالحديث النبوي ، وهم : ابنه الشاه عبد العزيز الذي

حل محل والده ، وكذلك إخوانه : رفيع الدين ، وعبد الغني ، وعبد القادر وكذلك ابن أخيه الشاه إسماعيل بن عبد الغني ، وكان لهم دور كبير في نشر السنة ومحاربة البدع والمبتدعة. ومن علماء المدرسة السلفية الآخرين بالهند العلامة : صديق حسن خان ، والسيد ندير حسين ، وأبو الوفاء ثناء الله الامر تسري ، ومحمد بشير السهسواني، وغيرهم: ومن جهود أهل الحديث بالهند تأسيسهم (جمعية أهل الحديث) عام ١٣٨٣ هـ ، وإنشاء (الجامعة السلفية) في بنارس ١٣٨٥ هـ ، (مجمع البحوث الإسلامية) وهو تحت إشراف مركز أبي الكلام آزاد للتوعية الإسلامية ويرأس المركز الشيخ عبد الحميد الرحماني ومن أهم أهدافه العلمية ما يلي :

١ -إحياء نفائس تراث سلفنا الصالح.
٢ - نشر الثقافة الأصلية المستمدة من الكتاب والسنة.
٣ - الدعوة إلى العودة بالأمة للاعتصام بالوحيين ونبذ الشرك والكفر والإلحاد.
٤ - معالجة القضايا الجديدة في ضوء الكتاب والسنة وبفهم السلف الصالح.
٥ - محاربة البدع والأهواء والعادات المستنكرة في أوساط المسلمين وتبصيرهم بالحق ودليله ومن جهود الجامعة السلفية العلمية إقامتها ندوة علمية عالمية عام ١٤٠٨ هـ عن شيخ الإسلام ابق تيمية ومآثره التجديدية وأعماله الخالدة ، وفي عام ١٤١٢ عقدت مؤتمرا عاما للسيرة النبوية شارك فيها الكثير من علماء ومفكري الأمة الإسلامية ، وألقيت فيها العديد من الدراسات العلمية الهامة. ومن أبرز شباب التيار السلفي في الهند صلاح الدين مقبول أحمد وعبد الرحمن الفريوائي، وأبو المكرم السلفي. ولهم أبحاث هامة عن دور الدعوة السلفية في الهند مذكورة ضمن مراجع هذا المقال ، ومن أهم مجلات الدعوة السلفية بالهند مجلة (صوت الأمة) ويرأس تحريرها الشيخ مقتدى حسين الأزهري ، وهو وكيل جامعة بتارس السلفية بالهند.

الواقع الاجتماعي والتشريعي للمسلمين بالهند :

المجتمع المسلم هناك مجتمع محافظ متمسك بآداب الإسلام، لا سيما في النواحي الاجتماعية التي هي محل اهتمام أعداء الإسلام لمحاولة هدم مجتمعهم وتغريبه.

ولقد اهتم المسلمون بالمرأة وتكريمها في الوقت الذي كانت المرأة الهندوسية فاقدة لإنسانيتها، بل قد تضطر لإحراق نفسها تفاديا لإهانات الهندوس.

ومع اهتمام المسلمين بتعليم الفتيان إلا أنهم لم يهتموا بتعليم المرأة كالفتى ، وكل ما حصل في بدء تعليمها أنها لقنت شيئا من القرآن الكريم لكسب الثواب ولأداء العبادة ، دون أن توجه إلى فهمه وإدراك مراميه. ومن هنا وجد المستعمر والمبشرون ثغرة استغلوها بجلب فتيات متعلمات لتدريس بنات الأمراء والأعيان ، وتربيتهن على الأسس الغربية ، ثم أقنعوا بعض الأهالي بتدريس بناتهم في تلك المدارس التي تبث السم في الدسم ، ولذلك حث (كارسان دتاسي) الإنجليزي في خطبته الحولية عام ١٨٧١ على التعليم النسوي ، وحصر النتائج بقوله »إن النشء الجديد سيملك السبق في الفكر ، وينجو من ضيق الأفق ، ويلغي جميع التقاليد البالية« وتحت ضغط القيم الإسلامية السائدة بدأ تعليم البنات غير مختلط ، ولم يستطيعوا الدعوة للاختلاط إلا عام ١٩٧٤ حيث تقبّل الناس ذلك وأصبح مألوفا.

وصدرت خطة التعليم الخمسية عام (١٩٤٧ - ١٩٥١) ، ومن أهدافها : » أن تبذل الدولة الجهود بواسطة الدعاية التعليمية للقضاء على التعصب في الأوساط الريفية ضد التعليم المختلط « وحينما استطاع دعاة التغريب استغلال تعاليم الإسلام للترويج لتوجهاتهم نجحوا في خداع المرأة والدعوة لفرنجتها - كما فعل دعاة التغريب في الشرق العربي أمثال قاسم أمين وبطانته - مما ساهم في تخلي الكثير من النساء المسلمات عن قيمهن الإسلامية تحت دعاية تحرير المرأة ، والدعوة لمساواتها

بالرجـــل ، فشقين أولئك المخدوعات زمنا ، ولما رأينا نتيجة ذلك انحرافا وتدهورا ظهرت صحوة إسلامية في محيطهن؛ فتمردت الكثيرات على تلك الأحابيل ، وعدن إلى الله وتحجبن طاعة لله ورسوله ، فلله الحمد والمنة.

النظم التشريعية وكيف انحرفت :

بدأ الانحراف بالقضاء على التشريع الإسلامي علنا على يد الإنجليـز عـام ١٧٧٢م حين أسند منصب رئيس القضاة لملك انجلترا. وبدأ التشريع الوضعى يأخذ طريقـــــه لساحة القضاء. والمتتبع لحركة هذا الانحراف لا يخفى عليه أن الإنجليز قد هيأوا الأسباب لنقض التشريع الإسلامي عروة عروة ، بدءا بتحديد مجال تطبيق الشريعة.

وبعد قرن غمر الإنجليز البلاد بتشريعاتهم الوضعية منذ بداية العقد السابع من القرن ١٩ وكانت سياستهم على حد قولهم : (بطيء ولكن أكيد المفعول) ففى خلال ٣٠ سنـة من القرن الماضي وضعت كل التشريعات البشرية بعدما استفادوا من التشريعات الإسلاميـة خوفاً من الصراع مع المسلمين.

ما هكذا تكون إرهابياً... أيها الأسمر!

د/ عبد الله عمر سلطان

وأخيرا عملت آلت التصنيف عملها ، حين أدرجت السودان في قائمة الإرهاب العتيدة...

هذه القـائمـة تصغر عاماً ، وتنمو بصورة مذهلة في عام يليه ، دون أن يكون هناك قانون ثـابـت يـحـكمها أو ناموس واضح يفسرها... ولهذا فإن على المشبوهين المسجلين في قائمة الانتظار أن يـتـحـلـوا بـشيء من الصبر ، وكثير من الدهاء ، حتى ينجوا من »العقوبة« التي تطاردهم... إن ناظر المدرسة الأمريكي - الذي هو طالب يتمتع بكثير من العضلات المفتولة - قـرر بـعـد أن انـتـقل من مقاعد الطلبة إلى مكتب الإدارة » الدولية « أن يسلط بعض » قوته وجـبـروتـه حـين يمـنـح شـهادة حسن السيرة والسلوك لزملائه... هذه الشهادة تمثل فكرة جميلة ، ويُمنح بموجبها العضو المنضم إلى محيط المجتمع الدولي شهادة حضارية على نبل سـلـوكـه، وبعده عن اللجوء إلى أسـالـيـب الإرهـــاب والبطش ... صحيح أن الفكرة جميلة وحضارية وراقية إلا أن همساً يدور بين أوساط الأقران في » المدرسة الدولية « يـقـول: كـيـف يمكن لعضو ندّ لَنا أن يمارس علينا دور الأستاذية، بغض النظر عن نبوغه وقدراته وثروته ... إنها مسألة مبدأ ، فالأقران من الطلبة والأفراد ، والجماعات والدول متفاوتون حتماً... بعضهم نابغ، وثانٍ ورثَ ثروة لم يتعب في تحصيلها، وثالث جاد مجد غير موفق ، ورابع محظوظ... لكنهم في النهاية أقران مشتركون في مساحة معينة وثابتة ، ولذا فليس من حق التلميذ القوي أن يفرض جبروته على الضعيف لمجرد أنه مفتول العضلات ، أو أنه يملك أسلحة رعب ودمار ، ويذكر بأنه صبها على رأس الملايين من الأبرياء قبل خمسين عاماً في هيـروشـيـمـا ونـاجـازاكـي؛ لـمجرد إثبات جنون الدمار المتمكن في ذاته، أو تكريس مبدأ الهزيمة والعار للجانب المستسلم تحت ظلال الدخان النووي المدمر!!

من الطبيـعي إذن - والحـالة هذه - أن يتساءل المتابع لقائمة الإرهاب السنوية وأن يلقي بـعـض المـلاحـظـات بـعـد أن يتجاوز إشكالية شرعية إصدار قائمة للإرهاب من قِبل جهة تتهمها جهات كثيرة بأن لها تاريخاً طويلاً في استخدام العنف وتكريسه ...

لـقـد خـلـت الـقـائـمـة الأمريكية من ذكر دولتين تمارسان الإرهاب وقذف الرعب في قلوب الأبـريـاء قبل صدور اللائحة في صورتها النهائية وأثناءه وبـعـده؛ فـإسرائيل قامت خلال صيف هذا العام

بغزو بربري لجنوب لبنان بحجة ضرب حزب الرافضة المسمى بحزب الله في الوقت الذي شردت فيه أكثر من نصف مليون مدنى بريء ، وطاردت طائراتها الأطفال والنساء والشيوخ حتى مشارف الشمال السني..! دع عنك ما تردده منظمات حقوق الإنسان من إدانة دامغة لسلوك إسرائيل العدواني تجاه سكان الأراضي المحتلة، واستخدام أساليب إرهابية مبتكرة، كتدمير منازل المشتبه بهم ، وتبنى المجتمع الدولى لقرار يجبر إسرائيل على إعادة المبعدين المدنيين إلى ديارهم شاهدُ آخر على قبح السلوك الإرهابى الإسرائيلي، الذي يصب جام غضبه على أبناء الأمة منذ أكثر من نصف قرن فإذا لم تكن إسرائيل إرهابية فمن الإرهابي إذن..؟؟ ربما يقول ساذج : الصرب الذين دمروا المساجد الآمنة وهتكوا عرض ١٠٠,٠٠٠ امرأة، ومارسوا التطهير العرقي، وأبادوا الحرث والنسل، وبقروا البطون ، ومثلوا بالأحياء والأموات...! والجواب بـ كلاّ..« كبيرة جداً ، فالصرب الهمج لا تشملهم قائمة الإرهاب الأمريكية ، مثلهم مثل اليهود ، والسبب يتضح ببساطة حيث أن المقصود بهذه القائمة إرهاب الشعور النصراني - اليهودي ليس إلا!

* معظم الدول التي جاءت بها القائمة دول إسلامية ، ابتليت بجزارين وطغاة ، صنعتهم مبادئ الغرب وقيمه ، سواء أكانت وطنية ، أو قومية ، أو اشتراكية ، فالعراق يسدد جرائم البعث، وليبيا عليها أن تقاسي من جراء انفصام شخصية القذافي، أما إيران فإن حكم الملالي لا يتورع عن استخدام العنف لتحقيق أحلام الخميني الهالك ، أو بروتوكولات حكام (قم). وقس على ذلك... إن القائمة إن شملت كوريا الشمالية فإنما يصب إدخالها في خانة الإسقاط النفسي القائل بأن الإرهاب هو سلوك يرتبط بالإسلام والشعوب التي تدين به!

إن أمريكا بأقمارها الصناعية، وطائراتها التجسسية، وعملائها المبثوثين فى الأرض، والبحر ، والجو ، عجزت عن أن تقدم دليلاً واحداً لهذا السلوك السوداني الإرهابى، والمعروف عن أجهزة التجسس الغربية أنها تُتبع التهم بالأدلة حتى ترسخ التهمة بالنسبة للشعوب التي تحكمها ، وتثير الفزع في قلب الضحية والمتهم! فهل عجزت الأجهزة التي تراقب مستودعات تخزين الأسلحة ، ومواقع صواريخ محددة عن الإتيان بدليل مقنع ومبرر مقبول، أم أن الاتهام سياسي في أساسه كما قال (وليم كوانت) الخبير بشؤون الشرق الأوسط الذي يرى أن إدراج السودان هو إشارة سياسية ضاغطة للحد من التوجه الإسلامي في هذا البلد؟!

كان بإمكان (جون جرنج) أن يستمر في ممارسة تمرده، وما يصاحبه من تقتيل، وتشريد ، وإرهاب ، جعل الجنوبيين أنفسهم يبتعدون ، وينشقون عنه وعن حركته البربرية ، التي لا تراعي حقوقاً إنسانية أو أخلاقية. فـ (جرنج) صنيعة مجلس الكنائس العالمي مدعوم بصورة مكشوفة ، بالرغم من أنه يقود حركة تمرد ضد حكومة معترف بها دولياً ، ورغم ذلك فلم يرف جفن خبراء الإرهاب في وزارة الخارجية الأمريكية ؛ لأنه مضموم ضمناً إلى قائمة إسرائيل وصربيا لا ضر من ممارساتها الإرهابية ؛ طالما أن الضحايا من الذين يحملون شهادة التوحيد في صدورهم....

فالسودان الشمالي المسلم إذن لم يعرف كيف يفهم أن يكون محاكياً لرابين ، أو بيجن ، أو شارون ، أو ميلوسيفتش ، أو كارفاجيش ومن الفصيل » الحضاري « الذي يعلي من شأن حضارة الرجل المسيحي الأبيض ، والذي قد يقبل في زمرته أتباع الكنيسة السُمر ، كجون جرنج ، ونيريزي من قبل ، اللذين افتتحوا فرعاً كنسياً جنوبياً يهدد بخنق منابع النيل والانتشار الحضاري للإسلام في القارة السوداء. ولو رضي السودان الأسمر بزعامة عصابات » جون « فإن اسمه سيُمحى من القائمة آلياً ؛ لأن من يريد أن يمارس الإرهاب كما يريد التلميذ الفُتوَّة ، فإن بإمكانه أن يفعل ذلك ، حتى ولو كان أسمراً !! أما إن كان أسمراً ومسلماً في الوقت نفسه فإن همساً يجري تداوله في محيط الأسرة الدولية يحذر من الجمع بين سمرة البشرة ، والإسلام ، والقبول في المحيط الدولي المتحضر

، الذي لا يفهم إلا القوة والجبروت حين تصبان ضد سودان (أسمر مسلم مستقل) وهى صفات يستحق من يحملها أن يسارَع إلى رميه بشتى النعوت والتهم! ولكـــن السودان الأسمر لو انحرف عن توجهه فإنه حتماً سيكون مقبولاً بكل بشاعته وإرهابه ، حتـــى ولو كان في قبح جون قرنق وأفراد عصابته إن القانون يريد إرهابياً كهذا ! يرحب به ويقول له : » هكذا تكون إرهابياً... أيها السودان الأسمر! «.

مجاهدو مورو لم يهزمهم الاستعمار لكن هزمتهم مائدة المفاوضات

التحرير

وردنا البيان رقم (٢١) (١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م) من لجنة الإعلام الخارجي لجبهة تحرير مورو الإسلامية ، وفيما يلي عرض لأهم ما تضمنه ذلك البيان :

أكد لنا التاريخ أن الاستعمار الصليبي - رغم جهوده - لم يهزم مسلمي مورو في ميدان الحرب ، ولكنه هزمهم في مائدة المفاوضات. لقد خاض مسلمو مورو أطول حرب في التاريخ كما قاله المؤرخ الأمريكي فيك هارلي في كتابه (هسهسة السيف) ، وفيما يلي مقتطفات وترجمة من الكتاب المذكور: » تعتبر بلاد بانجسا مورو من أقدم ميادين الحرب في العالم ، فقد خاض مسلمو مورو حروباً مريرة استمرت ٣٧٧ عاما ضد الحملات الأسبانية المتتالية التي شهدتها الأجيال المتلاحقة، ولعل العالم لم يسجل حروبا دامية مريرة أطول من حروب مورو ضد الأسبان. وقد فشلت محاولات المعتدين للسيطرة على شعب مورو الشجاع وفي عام ١٨٩٩ م ألقى المعتدون سلاحهم وغادروا المنطقة خائبين ذليلين ، وانتصر السيف على البندقية ، وبقي شعب مورو وبقيت عقيدته حيث انتصر الإسلام على الصليب في أرض بانجسامورو «. هذه ترجمة ما قاله المؤرخ الأمريكي في كتابه المذكور. ومضى قائلاً : » وفي غرة القرن العشرين جاء الأمريكيون، وحاولوا عبثاً أن يخضعوا مسلمي مورو لحكمهم ، وعندما أدرك الأمريكيون أن مسلمي مـــورو لا يعرفون الاستسلام ، بل يحبون الموت (الاستشهاد في سبيل الله) ، ولن يتوقفوا عن الجهاد إلى آخر رجل منهم ، عرض عليهم الأمريكيون وقف القتال والمفاوضات معلنين أنهم لا يريدون السيطرة على البلاد ، وإنما يريدون التعاون في المجالات الاقتصادية والتعليمية والصحية ، فوافق المسلمون ، وبذلك نال الأمريكيون غرضهم ، ولم يهزموا المسلمين في ميدان الحرب ، ولكنهم هزموهم في مائدة المفاوضات ، ووقعت بلادهم تحت حكم الولايـــات المتحدة الأمريكية. وقد فشل الحديد والنار في قهر شعب مورو المسلم وإخضاعه، وأصبحت بلاد مورو تحت الحكم الأمريكي عام ١٩٣٥ م ؛ بسبب دخول شعب مورو في المفاوضات مع الأمريكان ، ثم ضمتها أمريكا إلى الفلبين عام ١٩٤٦ م حين منحت الأولى الثانية استقلالها في ذلك العام ، أي أن أمريكا أعطت شعب مورو للفلبين جزاء لمساعدتها لهم في حرق هذا الشعب.»

هكذا لم يهزم شعبنا المسلم أمام القوات العسكرية التي فاقت قواتها مئات المرات إمكانياته المادية ، ولكنه انهزم عن طريق الحيلة والمكر وبواسطة المفاوضات المقرونة بالخداع ، وقد ذكرنا ما تقدم تنبيها لكل من يدفعون جبهة مسواري الوطنية إلى المفاوضات ويشجعونها ، وتذكيراً لهم بأن شعب مورو فقد استقلاله بسبب المفـــاوضات. صحيح أننا لم نعارض مفاوضات مسواري إعلاميا ولكن

لم نشجعها ولن ندفعها إلى الأمام ، فإن قيل : إن عدم المعارضة نوع من التشجيع قلنا : عدم معارضتنا إعلامياً ليس تشجيعاً ، ولكنه سياسة.

مفاوضات الاستسلام وقضية مسلمي مورو :

مفاوضات جبهة مسواري الوطنية العلمانية الحالية مع حكـــومة راموس الصليبية هي سلسلة من المفاوضات التي استمرت أكثر من ثمانية عشر عاماً ، لقد تفاوض مسواري مع جميع حكومات الفلبين المتعاقبة ابتداء من حكومة الديكتاتور مـــاركوس مروراً بحكومة زوجته إلى حكومة الثعلب المحتال راموس الحالية ، التي ليس لها هدف في مفاوضاتها معه سوى إقناعه بالاستسلام ، وعرض منصب حكومي عليه ، ومبلغ من الأموال. والشيء المضحك أن حكومة الفلبين - التي تعتبر من أفقر الحكومات في العالم - ما زالت قادرة على دفع الملايين من الأموال للاحتيال والمكر والرشوة وشراء ضعاف الإيمان والنفوس كما فعلت أثناء الانتخابات الأخيرة فيما يسمى الحكم الذاتي ، فقد أنفقت الملايين من أجل إنجاح ذلك المخطط ، كما أنفقت أيضاً الملايين لشراء ضعاف النفوس من الثوار العلمانيين من أتباع مسواري ، وقد استسلم عدد من هؤلاء مقابل بعض المبالغ التي دفعت لهم ، فإلى الله المشتكى.

والله نسأل أن يوفق المجاهدين لقطف ثمار الجهاد ، وأن يكفينا شر الراكبين موجات الجهاد لمصالحهم.

والله المستعان.

محاضرات إسلامية

الصحوة الإسلامية وأزمة المثقفين في ديار الإسلام

(١)

جمال سلطان

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وبعد :

فإن الحركة الإسلامية إذا شئنا التقييم الموضوعي النزيه ، هي أهم وأعظم حركة اجتماعية فكرية سياسية، شهدتها المنطقة الإسلامية، على مدار القرن الفائت كله، وذلك بالنظر إلى الفكرة التي قامت عليها هذه الحركة، ومحورها الإسلامي، الذي يمتاز بالأصالة والتجديد والإحـيـاء والـنـهـوض، وهـي الـمعاني التي سرقتها طوائف أخرى من تيارات الحركات الـعـلـمـانـــية السياسية والفكرية والاجتماعية ، وحاولت نسبتها إلى ذاتها ورفعها شعاراً تتجمل به ، وتخدع به المسلمين ؛ وأيضاً بالنظر إلى البعد الجماهيري واسع النطاق لهذه الحركة ، ورغم أنها حركة بعيدة عن السلطة أغلب الأوقات ، فلم يعرف المسلمون حركة اجتماعية وفكرية وسياسية ، استطاعت أن تكسب هذا الامتداد الجماهيري الهائل ، رغم كل الضغوط والترهيبات ، والقمع بأنواعه المختلفة. إن قبول الحركة الإسلامية واجتذاب الناس خلف شعار أو فكرة - في حـــد ذاته - ليس دليلاً كافيا على صدقيتها ، ولكن أن تحشد هذه الجموع خلف لواء الإسلام من جديد ، وتتحدى شياطين الإنس ، في الداخل والخارج ، وتستطيع أن تحرك الناس بهذا القدر للمطالبة بعودة الإسلام ، دينا ودنيا ، عقيدة وشريعة ، مصحفاً وسيفاً ، فهذا - بكل المقاييس - حدث فذ.

أيضاً ؛ فالحركة الإسلامية حدث فذ وفريد ، من جانب الهبة الإلهية لأبنائها أن تمتد هذه الحركة وتياراتها ، لتخترق الحدود المصطنعة ، لكنها القاسية والصارمة ، بين أقطار الإسلام ، لتصبح الحدث الاجتماعي الأكبر في بلاد المسلمين كافة ، كلا ، بل الحدث البارز والمثير للانتباه والبحث والتفكير في قارات العالم أجمع ، وحينما وُجد إنسان يشهد أن لا إله إلا الله ، محمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- .

أيضاً ؛ فالحركة الإسلامية حدث فذ ، من حيث أنها أول تيار فكري سياسي اجتماعي في العالم الإسلامي الحديث ، يقوم وينتشر، متطهراً من عقدتي: الغرب ، والتخلف ، وهذا ما أفزع دوائر الغرب ومراصده من هذه الحركة ، لأنه - لأول مـــرة - يشهد مثل هذه الحركة الجماهيرية التي تعلن -في جرأة وثقة- أنها تقبل التقنيات والعلوم البحتة، فهي تراث إنساني مشاع؛ وتكفر بالمناهج والنظريات والقيم والأفكار الغربية ، ويقول أتباعها: إن في ديننا وإسلامنا غناءً لنا ، وفيه حاجتنا ، وهدانا ، ورشدنا ، ومنهاجنا للنهوض والتحضر.

ومن جانب آخر ؛ كانت الحركة الإسلامية ، متجاوزة لعقدة » التخلف « ، التي أثارت الخلل المنهجي والعقلي والسلوكي في أجيال عدة من بني الإسلام لا سيما مثقفيه ، فمنهم من رأى التخلف قدرنا ، ومنهم من جعله ناتج تراثنا ، ، ومنهم من جعله بسبب تمسكنا بديننا ، ومنهم من جعله بسبب ترددنا في الالتحاق بالغرب ، وها هي الحركة الجديدة، تقلب كل المفاهيم ، لتؤكد أن » التخلف « ليس قدرنا ، بل هو ما جنـت أيدينا ، فإذا ما عدنا لما صلح به أولنا ، صلح واقعنا ، وارتفعت عنا وصمة » التخلف « ، كما أن التراث هو جهد الإنسان ، فيه ما في الإنسان ، من خير وشر ، وصحيح وباطل ، ونهضتنا لا تقوم إلا بعودتنا إلى تراث سلفنا الصالح ، ورفض ما عداه من الانحرافات والبدع ، والموبقات الفكرية والسلوكية والسياسية ، حاكِمُنا كتاب الله وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- ، ثم من بعد ذلك حاجات واقعنا الجديد.

ثم ها هي الحركة الجديدة ، تصل إلى تحديد منطلق التصحيح والنهوض ، وذلك بالتأكيد على أن سبب تخلفنا ، كان هو بعدنا عن الإسلام ، وهجرنا لمعالمه ، وخـــور العزائم في الدفاع عنه ، ومن ثم فإن سبيلنا هو إحياء الدين في النفس وفي الواقع ، والدفاع عن السنة ، وتعزيز إيمان المسلم بأن الإسلام هو السبيل ، والإسلام هو الحل.

وإذا كانت الحركة الإسلامية بهذا القدر من الخطر والشأن بشهادة خصومها ، بل بشهادة الواقع الذي لا يكذب أبداً ، فإنها - بالمقابل - كانت من أكثر الحركات ظلماً لدى بعض الباحثين والناقدين والمؤرخين ، وذلك لأسباب عديدة لا مجال للتفصيل فيها هنا ، ولكننا - في هذا المقام - نعتني على بعض الإسلاميين أنفسهم الذين استهوتهم موجـــات النقد ، ودعـــاوي النقد الذاتي ، حتى غرقوا في بحاره ، وما عاد أحد يسمع عن » إيجابيـــات « للحـركة الإسلامية ، وأنا زعيم بأن تسعين بالمائة مما يكتب في تقييم الحركة الإسلامية ينحى باتجـــاه إبراز » سلبيات الحركة « ، ويبقى نزر يسير ، يشير إشارات عجلى إلى » إيجابيات « الحركة ، وهذا خلل خطير ، على الأقلام الإسلامية بالذات أن تتنبه له ، وتعيره اهتمامها.

والآن من الضروري أن نحدد أبرز إيجابيات الحركة الإسلامية مما يتعلق بسياقنا الحالي ، ليس من قبيل التزكية ، أو مجرد التذكير بهذه الإيجابيات ، وإنما لما لهذه المعالم التي سنذكرها من أهمية كبيرة في كشف خلفيات العداء الذي أسفر عن وجهه أخيراً ببشاعة بين تيارات الثقافة المغتربة بمختلف فصائلها ، وبين الحركة الإسلامية ، وبعد ذلك ، نرصد بعض مظاهر »الفجور في الخصام الثقافي« لدى بعض المثقفين العرب وغير العرب من أبناء المسلمين ، في موقفهم من الإسلام

والحركة الإسلامية ، ثم نخلص بعد ذلك برؤية مستقبلية للعلاقة بين الحركة الإسلامية والمثقفين في ديار الإسلام.

معالم الحركة الإسلامية وإيجابياتها :

أولا: الحركة الإسلامية عندما تقدمت إلى الواقع منذ عدة عقود ، لم تتقدم إليه ، بصفتها جمعية دينية،بالمفهوم الضيق لمعنى الدين،وإنما تقدمت بصفتها مشروعاً للنهضة والتجديد ينطلق من الإسلام وحده.

وبالتالي، فظهور العمل الإسلامي بهذه الصورة لم يمكن العلمانية ومثقفيها من خوض معاركها مع الحركة الإسلامية على أساس » التقسيم الأوروبي التاريخي « بين الحكم الثيوقراطي والحكم المدني، وبين رجال الدين ورجال النهضة والتجديد ، لأن الإسلاميين كانوا »رجال نهضة وتجديد« ، والحركة الإسلامية كانت حركة نهضة وتجديد ، وهذا ما أضعف كثيراً تشويشات العلمانيين العرب على الحركة الإسلامية ، وجعل حديثهم عن الكهنوت ، والثيوقراطية ، والحكم الديني ، ونحو ذلك ، أشبه بالمزاح أو العبث الثقافي ، فضلاً عن فقدانه أي تأثير على القطاعات الثقافية الواسعة وعموم الناس.

ثانياً : أن الحركة الإسلامية هي - بشهادة الواقع والخصوم - صانعة الموجة الثقافية الحالية في ديار الإسلام كافة ، ويستطيع القارئ المتأمل أن يلحظ ذلك الأمر على الفور ، من خلال الاطلاع على مختلف النشاطات الثقافية ، فكرية وأدبية وفنية ، إذ يجد أن »قضية الإسلام« و »الصحوة الإسلامية« ، هي القاسم المشترك الأعظم في النتاجات الثقافية المتصلة بهذه الجهود كافة ، سواء كان ذلك بالسلب أو بالإيجاب ، إن المعادين للإسلام والصحوة الإسلامية - أو أبناء الصحوة ورجالاتها ونساءها والمتعاطفون معها أو المتأثرين بها. في كل هذه الأحوال تبرز الحقيقة ناصعة ، لتثبت أن الحركة الثقافية الآن في ديار الإسلام تدور حول قطب واحد هو » الإسلام « ، وذلك نصر كبير للحركة الإسلامية ، رغم أن العديد من الإسلاميين أنفسهم لا ينتبهون إلى خطره وقيمته.

لقد كانت الثقافة في ديار الإسلام - حتى عهد قريب - تدور حركتها حول قطب » الغرب « والفكر الغربي والحضارة الغربية ، سواء بالتبعية ، أو النقد ، أو المواءمة ، المهم أن القطب صاحب الحيوية الثقافية الذي يصبغ الحركة الثقافية بصبغته - سلباً أو إيجاباً - كان هو الغرب والفكر الغربي والآن أصبح » الإسلام « هو القطب ، والفكر الإسلامي هو الذي يصبغ الحركة الثقافية بصبغته - سلباً أو إيجاباً - ، المهم أن الجميع الآن يدورون في فلكه ، أرأيتم حجم النقلة وروعتها؟

ثالثاً:إن مثقفي الحركة الإسلامية اليوم هم الرواد الحقيقيون للجماهير المسلمة، وهم الأكثر التصاقاً بالناس، وتعبيراً عنهم، وجاذبية لديهم وهم الأكثر نفوذاً في العقل العربي والإسلامي الجديدين بوجه عام.

والكلام هنا لا نقصد به أبداً ، التفاخر ، أو التفريط أو المباهاة ، فليس المقام مقام ذلك ، وإنما نحن نرصد » ظاهرة « ثقافية ، من حقنا بل من واجبنا أن نبني عليها ، ونضعها في اعتبارنا عندما ندرس حياتنا الثقافية الجديدة.

إن الحركة الإسلامية في ديار المسلمين لا تملك السلطة ، بل هي - غالباً - مضطهدة من السلطة ، ومع ذلك نجد إقبال الناس على الدعاة - شباباً كانوا أو شيوخاً - بالغ الإدهاش ، وإقبال طلبة الجامعات والمثقفين على الكتب الإسلامية والمحاضرات طاغياً بوضوح ، حتى أنه لم يعد من قبيل المفاجأة أو الجديد أن يزور القارئ معرضاً من معارض الكتب الرسمية ، فيجد دور النشر العلمانية بل الشيوعية تضع في صدر أجنحتها كتب سيد قطب ، وأبي الحسن الندوي ، وأبي الأعلى

الـمودودي ، ناهيك عن كتب السلف الصالح ، وقد شاهدت ذلك بنفسي في معرض القاهرة الدولي للكتاب.
بالمقابل ؛ تجد المثقف العلماني أو المتغرب ، قوميا كـان ، أو شيوعيا ، أو ليبراليا شبه معزول عن واقعه ، محروماً من الإحساس بجمهور الناس ، حانقاً على شعبه. إن أحداث الجزائر وما تلاها ، ، كشفت بوضوح أن المثقف العلـمـاني ، قد تحول إلى عدو صريح للشعب ، وللجماهير ، يصرح باحتقاره للناس ، وبعدم أحقيـــة الشعوب - الآن - في اختيار حكامها ، واتهام الجماهير بالتخلف والغباء ونحو ذلك.
كما تحولت لقاءات المثقفين العلمانيين إلى ما يشبه »نوادي أدبية« محدودة العدد ومحفوظة الوجوه ، المتحدث فيها هو المستمع ، ولا يخرج صوتهم - أبداً - إلى الشارع ، ولا ينفذ إلى عقول الناس وقلوبهم ، ولا يكاد يسمع الناس بأسمائهم إلا عبر الصحف الحكومية التي » أُجّرت« لهم ، نظير سب الإسلام والصحوة الإسلامية ورموزها وتشويهها ، ودعوة الناس إلى الانصراف عنها.
إن الحصار الذي يفرض الآن على الحركة الإسلامية - سياسياً وفكرياً واجتماعياً - هو بالمقياس الثقافي العام » مدمّر « و » قاتل « ، ومع ذلك ؛ تصل دعوة الحق وصوت الإسلام إلى الناس في كل مكان ، وتتأبي الحركة الإسلامية على الموات بفضل الله ورحمته.
رابعاً : الحركة الإسلامية وصحوتها أدت إلى بلورة الموقف الـثـقـافـي ، ودفعت الحركة الثقافية إلى درجات حادة من التمايز والوضوح ، وبالمصطلح الإسلامي ، فإن مسألة » الولاء والبراء « قد انتقلت بالفعل إلى الحياة الثقافية ، وفرضت على الرموز الثقافية حسم مواقفها وخياراتها ، بعد أن ذابت المناطق المحايدة ، وتمايزت السبل ، وأصبح الانتماء الثقافي محصوراً في وجهتين : الأصالة والإسلام من جانب ، والتقليد والتأورب من جانب آخر.
وفي الحقيقة فإن الطرح الجديد للحركة الإسلامية ، كان نقلة ضخمة فى الوعي الإسلامي الحديث كله ، إذ نادى الإسلاميون بأن الإسلام - والإسلام وحده - هو السبيل ، وهو الحل ، وهو حضارتنا ، وأن الإسلام كل متكامل ، ومنهاج شامل ، عقيدة وشريعة ، ديناً ودنيا، وأن للإسلام خصوصيته التي لا تشبه شيئا من أفكار البشر، ومناهجهم،ومذاهبهم.
هذا الطرح قطع الطريق على المزورين ، والملفقين ، الذين احترفوا تمييع المواقف الفكرية ، بمحاولات المزاوجة بين الإسلام والفكر الغربي ، ونظرياته السياسية والاقتصادية ، ونظمه التشريعية ، ونسقه القيمي ، وهي المحاولات التي أسهم فيها - بحسن نية - قطاع واسع من الـمفكرين المسلمين على مدار القرن الأخير ، زعماً أنهم - بذلك - يجملون الإسلام في عين الإنـســـان الجديد ، ويستجلبون تأشيرة دخول للإسلام إلى نادي الحضارة الأوربية الطاغية!
وعلى الرغم مـــن أن نفـــراً من المفكرين المسلمين اليوم ، مازال أسير هذا الموقف الساذج والمهزوم ، إلا أنهم أصبحوا » ندرة « وشبه معزولين عن المجرى العام للصحوة الإسلامية الجديدة.
هذا الموقف والطرح الفكري الحاسم والواضح ، جعل المثقفين أمام أحد خيارين ، لا ثالث لهما ؛ إما الإسلام ، وإما الاغتراب ، وكان من نتائج ذلك على الصعيد العملي ، تعدد حالات التحول الفكري لرموز ثقافية كبيرة إلى الإسلام ، على ما شاب بعضها من بعض الغبش، وبالمقابل سفور عداء المثقف العلماني للإسلام، والانحدار الخطير في لغة الحديث عن الإسلام وتاريخه وشريعته ورموزه المقدسة، ومن ثم؛ نذكر ، ونؤكد ، أن ازدياد عنف مثقفي العلمانية والإعلام المؤازر لهم، وطغيان هجومهم على الإسلام ورموزه ودعاته ، هو مؤشر طيب، وإيجابي، وليس سلبياً، هو شعور » الظلاميين « باقتراب الفجر، وتميز الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وكلما ازداد موقف الإسلاميين

وضوحاً، وكلما نجحوا في نقل هذا الوضوح إلى » الناس « وإلى عامة المثقفين ، كلما ازداد السعار العلماني ، وكلما تواتر انحداره الأخلاقي والفكري بصورة متسارعة ومتخبطة.
خامساً : لقد شاء الله تعالى أن يعلو مد الحركة الإسلامية ، ويشتد عودها ، في الوقت الذي كانت فيه أكبر تجربة أوربية عقائدية جديدة تذوي وتنهار ، وتنتهي بفضيحة سياسية واقتصادية وإنسانية لا حدود لها ، وأعني بذلك المشروع الماركسي - وهو نبت فلسفي أوربي كما هو معروف ، أي أنه إفراز لحضارة أوربا ومع سقوط الماركسية وتتابع انهيار نماذجها في أوربا وآسيا وإفريقيا ، بدأت حقائق التاريخ تعود من جديد ، لتؤكد ما حاولوا تغطيته وستره طوال قرن أو أكثر من تاريخنا الحديث ، عادت حقائق التاريخ ، لتبرز العداء الغربي تجاه الإسلام ، والحقد الغربي على المسلمين ، والقلق الغربي من ظهور دولة الإسلام من جديد ، وأصبحنا اليوم نسمع الكلام سافراً عارياً ، من الدوائر الغربية ، الإعلامية أو السياسية ، بأن » الإسلام « هو العدو الجديد / القديم ، للغرب ، ومن ثم ؛ فإن الحركة الإسلامية أو » الأصولية « كما صاغوها ، هي حائط الصد الذي يحول دون إعلان السيادة الأوربية على العالم أجمع ، وإعلان النصر النهائي للحضارة الأوربية في الأرض.
إن المواجهة مع الغرب اليوم، قد بدت مواجهة مع الكيان الإسلامي بوصفه أمة ، فليست القضية قضية يمين أو يسار، أو ليبرالية أو اشتراكية، أو ديكتاتورية أو ديمقراطية ، وإنما القضية أصبحت قضية الوجود الإسلامي بكامله ، فإما أن ينمحق في المشروع الغربي ، أو يكون عدواً للحضارة والمدنية ، وأصولياً وإرهابياً ، و... إلى آخر قائمة الاتهام.
ومن ثم ؛ تبدو الحركة الإسلامية اليوم في موقف الدفاع عن » الأمة « وعن » الوجود « وعن » الهوية « ، كل أولئك بالقدر نفسه في دفاعها عن » الدين «. إن التحالف الغربي الصليبي والصهيوني ، يتجلى اليوم واضحاً في فلسطين ، وفي البوسنة ، وفي جمهوريات آسيا الوسطى » السوفيتية سابقاً « ، وفي الصومال ، وفي غيرها من المواقع الديار ، وعندما نجحت جبهة الإنقاذ في الجزائر ، وحازت ثقة الشعب ، وأصبحت صاحب الشرعية لقيادة الجزائر ، فزعت الدوائر الغربية، وكان محور الفزع ليس الوضع الداخلي للجزائر، وإنما »آثار ما يحدث على أوربا ومصالحها في المنطقة« ، ومازلنا نذكر تصريحات سياسية من أعلى الدوائر الغربية ، التي تؤكد بأنها لن تسمح بقيام حكم » أصولي « في الجزائر.
هذه الحقيقة ، جعلت الحركة الإسلامية بمثابة الممثل الشرعي الوحيد لثقافة الدفاع عن الأمة ، وعن وجودها ، وتراثها ، وحاضرها ، ومستقبلها ، واستقلالها ، كما أنها الممثل الشرعي عن دينها وعقيدتها ، وبالتالي أصبح معظم المعادين للصحوة الإسلامية اليوم ، لا يستحون من الكشف عن ولائهم الفاضح لأعداء الأمة ، إلى الحد الذى يتحدث فيه الشيوعيون والعلمانيون المصريون - مثلاً - عن عميل للمخابرات الأمريكية ، وكأنه بطل قومي لأنه تجسس على معارض إسلامي ، كما أن الذاكرة مازالت تحفظ آخر برقية أرسلها طاغية أفغانستان المخلوع » نجيب الله « إلى الرئيس الأمريكي ، والتي قال فيها » ادخرني لعدوك..! « وعلقت الصحافة يومها على البرقية بالقول : » إن نجيب الله عرض على الولايات المتحدة أن تساعده في مقابل أن يقف صخرة في طريق المد الإسلامي » الأصولي « في آسيا الوسطى ، وإلى الحد الذي يشرنا فيه بعض المعارضين السودانيين من فلول العلمانية والشيوعية بقرب التدخل الغربي في السودان ، لتحريره من » الجبهة الإسلامية«!!!

هدية لمكتبة شبكة مشكاة الإسلامية

رؤية جديدة للدين الإسلامي*

روبن رايت

في آخر أيام شهر رمضان وفي اللحظات الباردة التي تسبق انبلاج الفجر وشروق الشمس تأتي إلي الأسماع أصوات المؤذنين من آلاف المساجد بالقاهرة تلك المدينة القديمة قدم الزمن تقول: الله أكبر الله أكبر« تنطلق من مكبرات الصوت من خلال شوارع المدينة الضيقة والملتوية ، بعدئذ تبدأ الشوارع التي كانت خالية من الناس في الحركة.

لقد كان هذا صباح يوم عيد الفطر.

انطلقت أصوات الناس بالتهليل ، تحمل في طياتها أدعية الحمد والثناء »الحمد لله وحده صدق وعده ، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا اله الا الله« إنها واحدة من أكبر المدن في العالم العربي تمثل منطقة حضارية هائلة تضم بين جنباتها كل الأشياء.

إنها أيضاً مدينة عربية ، قريبة من قلب الصحوة الإسلامية المتنامية ، التي تدعو مسلمي العالم إلى أن يصبحوا على علاقة أوثق بجذور دينهم أكثر من أي وقت مضى خلال التاريخ الإسلامي ، الذي استمر ١٤٠٠ عام حتى الآن.

يشكل الإسلام - الذي يبلغ عدد أتباعه بليون نسمة في كافة أنحاء العالم ويعيش ملايين منهم كأقليات في الغرب - يشكل اليوم قوة سياسية وثقافية دولية ، تقف لتعيد تحديد علاقة الغرب بالعالم الثالث ، وتتحدى مفاهيمه عن التقدم ، وتضع المعايير للنظام العالمي الجديد.

في الشهور الأخيرة احتلت الأخبار الإسلامية العناوين الرئيسة في الصحف ، بعد المكاسب الانتخابية التي حققوها في الجزائر ، والأردن ، والكويت ، بعد أن فجر الإسلاميون المتطرفون القنابل في نيويورك والقاهرة(١).

واذا مانحينا العناوين الرئيسية في الصحف جانباً فإن الحقيقة الأكثر أهمية تتمثل في أن الدين أصبح بشكل متزايد جزءا لا يتجزأ من نسيج الحياة اليومية للمسلمين ، من أفريقيا إلى آسيا ، ومن نيوجيرسي إلى مانيلا ، حيث تأتي عملية التجديد للدين بمصدر جديد للهوية الثقافية ، والعمل السياسي في عالم يشهد تغييرا كبيرا.

ففي الجمهوريات السوفيتية السابقة في أوزبكستان وطاجيكستان نجد أن مدارس قرآنية جديدة قد فتحت أبوابها كي تحل محل المؤسسات التعليمية العلمانية التي قامت إبان الحكم الشيوعي ، وفي الأردن نجد أن الخمور قد منع تقديمها على طائرات الخطوط الأردنية ، وفي جنوب شرق آسيا نجد أن ماليزيا تحاول بتردد تطبيق الشريعة الإسلامية، في حين تجابه الفيلبين خطر الحروب الانفصالية بتحديد مناطق للحكم الذاتي ، يعيش فيها المسلمون.

ومن تونس إلى الأردن يحصل الأب المسلم النشط على أصوات الأغلبية في الانتخابات المحلية لاتحادات الطلبة والنقابات والمجالس البلدية ، كما أن المساجد في مصر تضيق بتدفق المصلين إليها ، حتى أنهم صاروا يؤدون صلواتهم في أقبية المباني ، وفي الحجرات الخلفية لها ، وحتى في الممرات الجانبية التي يسير فيها الناس.

لكن هذه الصحوة الإسلامية قليلاً ما يفهمها الغرب ، الذي تنبع تصوراته عن الإسلام من ثورة إيران في ١٩٧٩ ، وجموعها الغاضبة التي كانت تهتف : »الموت لأمريكا« كما تنبع من أحداث لبنان، التي قام خلالها جيل من المحاربين المسلمين بعمليات قتل أو إرهاب للغربيين الذين غامروا ، واقتربوا من قلب الحرب الأهلية في لبنان.

وفي الواقع فان الارتباط التاريخي للإسلام بالسيف يجعل البعض من الغربيين يرتعد حينما يرى كلمات تقول : » لا اله إلا الله محمد رسول الله « مكتوبة فوق سيف مسلول على العلم السعودي وفي الوقت نفسه فإن هؤلاء لا يبالـــون بالـعبـــارة التي تقول » نحن نثق في الله « المنقوشة على ظهر الدولار الأمريكي.

الافتراءات والمفاهيم الخاطئة :

يعتبر الربط بين الإسلام والمحاربين من رجال القبائل العـربيـــة الذين نشروا الإسلام في بدايته واحدا من العديد من المفاهيم الخاطئة ، التي لها مـفـعـولـهـــا اليوم. فالعرب في التسعينات يتزايد وضعهم كأقلية بين الـ ٧٥ دولة التي تشكل »دار الإســـلام« ، والتي تقع مراكزها الكبرى حالياً في أندونيسيا ، وباكستان ، وبنجلاديش ، والهند ، وجمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق في آسيا الوسطى.

إن خمس سكان العالم ينتشرون عبر منطقة تمتد مسافة ١١٠٠٠ ميل من غرب أفريقيا إلى جنوب شرق آسيا ، وهؤلاء جميعا يشهدون بأن محمدا هو خاتم أنبياء الديانات السماوية. ولم يقتصر الأمر على الربط بين الإسلام والسيف ، ذلك أن هناك أيضاً خرافات وافتراءات أخرى منها قولهم :

- إن الدين الإسلامي دين »بربري«؛ لأنه يطبق حدودا مثل : قطع الرأس ، وبتر الأعضاء، والـرجـم، كـعـقـوبـــات لبعض الجرائم. وفي الحقيقة فإن المملكة العربية السعودية، وإيران عموماً ، والسودان من حين لآخر يطبقون هذه العقوبات إلا أن قطع الـــرأس في الرياض لا يمكن أن يكون أكثر بربرية من الإعدام بالكرسي الكهربائي.

إن كل المواطنين اعتبارا من سائقي سيارات الأجرة إلى أساتذة الجامـعـات يثنون على هذا الأسلوب العقابي ، ويردون على المنتقدين بالإشارة إلى الفارق بين مـعـــدلات الجريمة في الرياض ، ومعدلاتها في نيويورك.

- إن الوجه الصارم لآية الله روح الله خميني - الذي حكم بالموت على المرتدين - يمثل غالبية رجل الدين من المسلمين ، لكن يتعين علينا أن نجرب مشاهدة رجـــل دين حكيم على شاشة التلفزيون هو الشيخ محمد متولي الشعرواي ، الذي يجلس متربعا مساء كل يوم جمعة ، ويقوم بروح طيبة بتفسير القرآن الكريم للملايين من المشاهدين.

- إن الإسلام الجهادي يسير على طريق التصادم العنيف مع الغرب.

وفي هذا الصدد يمكن القول بأن الإسلام قد يكون على خلاف مع الغرب في نواحي مـعينة ، لكن أسلحته بالنسبة للمستقبل تأخذ شكل المؤتمرات ، والمنتديات الفكرية، وصـنـاديق الاقتراع ، أكثر من أن تأخذ شكل الإرهابيين الملتحين ، حتى في مصر التي عانت من أسوأ أعمال العنف الإسلامية في السنوات الأخيرة.

في الواقع فإنه في الوقت الذي يبدو فيه أن العالم الإسلامي صار الجبهة التالية للصـــراع بـعـد الحـــرب الباردة ، فإن ذلك لا يرجع إلى حد كبير إلى أن المسلمين يمثلون تهديداً عسكرياً أو إرهابياً ، لكن لأنهم يطرحون تحديا أساسيا : يتمثل في قوة اجتماعية سياسية متنامية ، تثير تساؤلات حول بعض مفاهيم الغرب ؛ عن الواقعية ، وعن طبيعة التقدم ، والعلاقة بين الله والبشر، ودور التقنية، والعصرية، والمبادئ الأخلاقية في حياة الإنسان.

هناك جيل جديد من الإسلاميين الذين درس الكـثـيـــر مـنـهـــم في الغرب على استعداد للاستفادة من المفاهيم الديمقراطية.

إن هؤلاء الإسلاميين يتسلحون بالكتابات القديمة من القرآن ، التي جرى تعديلها لتتواءم مع احتياجات الحاضر في إطار الإصلاح العصري ، وهي تمثل واحـــدة من أهم القضايا الفكرية في التاريخ الإسلامي.

وفي هذا الصدد يقول أحد المفكرين » إنها ليست مسألة إحياء روحية فقــط ، إنها مسألة إحياء أيضاً للقرآن ، كما أنها تجديد للفكر ذاته ، إنها صحوة لنشاط الطـاقـة الإسلامية الكامنة ، وهي على الأغلب صحوة تقودها الصفوة العصرية ، التي تعرضت لتأثير الغرب ولتحدي ثقافة الغرب ذاتها «ويضيف :

» أمـــا مسألة أن قدر العالم الإسلامي المحتوم هو الصراع مع الغرب فإن ذلك يعتمد على مدى استعداد الغرب لقبول مستوى من النزاهة والعدل يسمح بسيادة الديمقراطية في العالم الثالث ، حتى ولو تولدت عنها الحركة الجهادية الإسلامية ، وضمانُ معاملة المسلمين في البوسنة والهرسك ، وفي فلسطين ، وليبيا بالمعاملة نفسها التي يلقاها اليهود في إسرائيل ، والنصارى في أي مكان من العالم «.

ويقول آخـــر » المفروض أن نتحدث عن الاستقلال الفعلي ، لا الاستقلال الاسمي : عن الاستقلال الاقتصادي ، وعن الاستقلال في الأنظمة التعليمية ، والأنظمة السياسية إلا أن هذا قد يتعارض بشكل أو بآخر مع مصالح الغرب.

إن قيام علاقة بناءة بين الغرب والعالم الثالث يعني وضع جداول أكثر عدلا لسداد ديون الدول المدينة في العالم الثالث ، وإقامة علاقات تجارية أكثر عدالة ، وتحقيق قدرة أفضل من جانب الدول النامية على الاستفادة من مواردها الطبيعية «.

ومن جهة أخرى يقول مفكر آخر اقتفى الحركة السياسية من ثورة مصر في عام ١٩١٩ التي استمر المصريــون بـعـدها في تبني التقاليد الغربية في مجالس الأعمال والثقافة حتى ثورة جمال عبد الناصر في ١٩٥٢ التي أقــامت الاستقلال الاقتصادي الاجتماعي على مذاهب قومية علمانية ماركسية.

» أعتقد أننا الآن في المرحلة الحديثة مـــن حركة التحرير الوطنية وفي إطار هذه المرحلة اكتشفنا أننا قد انغمسنا كثيراً في التقاليد الـغــربية إلى الحد الذي نسينا فيه حقيقة أننا نختلف عنه أي : عن الغرب، وأننا حينما نتحدث عن شخصيتنا، وعن هويتنا الوطنية، فإننا نأتي حتماً إلى الإسلام «.

ويضيف إن أول شيء نرفضه في الغرب هو إصرار أصحاب الثقافة الـغـربيــة على أنهم يحتكرون مفهوم التقدم، وأنهم يحددون هوية التقدم والعصرية بربطها بالحياة الغربية، ونحن نتساءل لماذا؟!«.

ويضيف:» إن المسلمين إذا ما تولوا زمام الحكم فإنهم قد يضعون لدى الآخريـــن نموذجا يجعل المعايير هناك تختلف ، كما أنه لن يكون لديك معيار واحد للقياس يتمثل في معدل النمو الاقتصادي إننا لا نعبد معدل النمو الاقتصادي إننا فكرة الاستقلال الثقافي ، الذي ربما يمثل أكثر التهديدات للغرب ، وهو الاستقلال الذي يبني بديهات التقدم والعصرية على تحكم العقل ، والسعي إلى تحقيق الازدهار الاقتصادي ، وهي المفاهيم التي سادت الحضارة الغربية لأكثر من ثلاثة قرون.

إن الإسلام يتيح نموذجاً آخر يتمثل في نظام شامل للإيمان ، يمتزج فيه الدين ، والحكم ، والزواج ، والعمل امتزاجا كاملا في نسيج واحد متداخل ، تحل فيه الأفكــار الراسخة والمحددة للأخلاق والقيم محل لغة الاستيعاب ، وتسود فيه سلطة التشريع على الأفكار الغربية العصرية عن القانون ، الذي يسن وفقا للضرورة والظروف المتغيرة.

يقول أحد المفكرين الفرنسيين ويدعى (فرانسوا بورجا) : إن هذه الحركات الإســـلامية تسبب لنا الجنون لأنها تؤذينا في الصميم.

لقد اجبرونا على أن ندرك الحقيقة التي تقول : إننا لا نملك احتكار النظام الرمــزي ، اننا لسنا الوحيدين الذين يمكن أن يتعاملوا مع الأمور الكونية فهل صار ميزان القوى يتغير في هذا المجال؟ نعم - وهل هذا التغير في صالحنا ؟ والإجابة طبعا : » لا « ويضيف (فرنسوا بورجا) إلى ذلك قوله »لكن إذا كنا نفقد احتكارنا لهذه الأمور فهل يتعين علينا أن نواجــه ذلك بالتدخل في العمليات التي تتم في محيطنا ومن حولنا، إننا بذلك نربي عداوات أكثر.

إن الصحـــــوة الإسلامية تعكس جزئياً ظاهرة متنامية على المستوى العالمي ، أصبح فيها الدين قوة للتغيير ، تتسم بالطاقة والديناميكية.

وفي المجتمعات التي تناضل في محاولاتها تخليص نفسها من الإفلاس ، أو من الأنظمة التي تنقصها الكفاءة ، أو البحث عن بدائل قابلة للبقاء فإن الدين يوفر المُثُل ، والهوية ، والشرعية ، كما يتيح البنية التحتية أثناء عملية البحث ، ويتم ذلك بدرجات مختلفة في كل أنحاء العـــالم ، وعلى سبيل المثال فإن البوذيين في شرق آسيا ، والكاثوليك في شرق أوربا وأمريكا اللاتينية والفلبين، والسيخ والهندوس في الهند ، وحتى اليهود في إسرائيل، كل هؤلاء تحولوا إلى دياناتهم حتى يتمكنوا من تحديد أهدافهم ، ولتعبئة قواهم.

وفي أغلب مناطق العالم العربي نجد أن الإسلام يطرح طريقة لمعالجة عقود من الفشل : الاجتماعي ، والاقتصادي ، والعسكري ، والاضطراب الذي حدث مؤخراً بسبب حرب الخليج.

في حقبة الضياع هذه نجد أن الإسلام يبعث الحياة من جديد في صورة الماضي ، التي وحد أثناءها منطقة تعيش فيها قبائل متصارعة ، في إطار لغة واحدة ، ودين واحد.

ومنذ الفترة التي هاجر فيها الرسول -صلى الله عليه وسلم- من مكة في عام ٦٢٢ م ، وبدأ فـي إقامة أول دولة إسلامية على أرض الصحراء العربية في المدينة المنورة فإن الإسلام بدأ عصرا ذهبيا من الصعود السياسي والفني غطى عدة قرون ، وتم نقل التعاليم الإسلامية مع الذين قاموا بفتح أسبانيا ، ومع الأتراك العثمانيين الذين فتحوا استانبول ، وعادوا عن طريق البلقان إلى أوروبا.

أما في آسيا فإن التجار العرب قاموا بإدخال أجيال كاملة من المتعاملين معهم في جاوه ، وسومطرة ، وبورما ، وماليزيا ، وتايلاند ، والهند ، والصين ، والفلبين ، في الإسلام خلال الفترة من القرن السادس حتى القرن الثاني عشر ، وبعد ذلك بمئات السنين انتقل الإسلام على السفن التي كانت تنقل العبيد من إفريقيا إلى أمريكا.

إن تلك هي الحقبة التاريخية التي تحول فيها العديد من المسلمين خاصة في المنطقة التي تمثـــل القلب من العالم الإسلامي ، لقد خدعت أجيال من العرب بسلسلة من المذاهب السياسية المتتالية ، التي تمثلت أساساتها في الماركسية والقومية اللتين جعلتهم يعيشون ، في أحلام الوحدة والاستقلال الذين لم يتحققا قط.

وكانت نـقطـــــة التحول للعديد من هؤلاء هي الهزيمة العربية في عام ١٩٦٧ على أيدي الإسرائيليين ، وهم شعب يعرف الكثيرُ من المسلمين عنه أنه شعب يحقق النصر ؛ لأنه لم يفقد صلته بجذوره الدينية.

إن العالم الإسلامي مشغول الآن بفكرة جديدة عن الجهاد، وهي تعني رد العدوان،وليست الفكرة التقليدية ، التي تعني شن الحرب المقدسة ، وهي تنطوي أيضاً على معنى النضال من أجل الإنجاز وبناء الأفضل، وإقامة مجتمعات أخلاقية، وتحقيق كفاية الإنتاج لتحقيق الاستقلال الاقتصادي.

وفي الحقيقة فإن المسلمين زادت مقاومتهم كثيراً ، وســـوف يردون العدوان عن أنفسهم بالطبع إذا ما حاولت أوروبا أن تفرض نموذجها عليهم.

إننا نعلم أن أوروبا لا تؤمن بالديمقراطية إيمانا مطلقا ، فهم يكبحون الديمقراطية حينما تأتي بالإسلام إلى الحكم ، ويقضون عليها. لقد فعلوا ذلك في تركيا ، وفي الجزائر ، وإذا ما تعرض الإسلام للظلم والاضطهاد فإن المسلمين سوف يتحولون إلى الجهاد ، ويعني هذا الجهاد المقاومة ، ولا يعنى الحرب ؛ لأنه إذا وجه شخص إليك فعلا ، فإنك توجه إليه بالتالي فعلا آخر «.

الهوامش :

* للكاتب (روبن رايت) في مجلة (لوس أنجلوس) الصادرة في ٦ أبريل ١٩٩٣.

(١) أثبتنا في الترجمة ألفاظ الكاتب وتعبيراته دون تدخل منا ، حتى تتسق أفكاره أمام القارئ المسلم ، ويكمل تصورنا عن نظرة الغرب إلى الصحوة ، ولا يعني ذلك - كما هو واضح - موافقتنا على تعبيراته واتهاماته.

منتدى القراء

خاطرة حول خواطر في الدعوة

طالعت ما كتبتم في ركن - خواطر في الدعـوة - مجلة البيان عدد٦٥ محرم ١٤١٤ هـ.

فخطرت لي خاطرة سجلتها لكم مبينا قضية ليست غائبة عنكم ولا بالجديدة عليكم أو عندكم ، ولكن أردت بها التبيين والتوضيح والتركيز أكثر:

صحيح أن الفئة العريضة من المجتمع الإسلامي اليوم هم ممّن ذكر فضيلة الشيخ العبدة تسمية ابن القيم - رحمه الله - لهم ولأمثالهم بـ » أصحاب العقل المعيشي فلا يهمهم إلا زينة الدنيا وبريقها. ولا ذكر لهم غير المسكن والملبس والسيارة والأثاث والراتب.

وجيد كذلك أن توجه دعوة للدعاة للاهتمام بهؤلاء ونقلهم مما هم فيه إلى ما هو أفضل لهم في الدنيا والآخرة ولكن هناك حقيقة لا يمكن إنكارها، ولا نغض الطرف عنها، وهـي أن الفئـة العريضة أيضاً في المقابل من دعاتنا وللأسف يشغلهم شغل الفئة الأولى ، فمن مـن دعاتنا وعلمائنـا - طبعا إلا من رحم الله - ممَّن يتبوؤون المناصب العليا في المؤسسات الرسمية ، والمراكز الإسـلامية ، والجمعيات الخيرية والعلمية وغيرها... ، منَ مِن هؤلاء من لا يهتم بامتلاك المساكن العديدة والسيارات المختلفة ، والسعى إلى الحصول على أرفع الرواتب والوصول إلى أعلى الدرجات والمناصب...؟!

إن السعي في تحصيل رزق الأطفال واجب ، وتأمين مصالح الأهل كذلك. ولكن أن نبالغ في كل ذلك وننغمس في تحصيل الكماليات بدرجات أرفع وكميات أكبر فهذا ما يأباه العقل.

إن على دعاتنا وعلمائنا إذا أرادوا حقا أن يُخرجوا هذه الفئة مما هي فيه وينتقلوا بها إلى بر الأمان ، عليهم أن يتورعـوا هم - أولاً - عن هذه الشبهات ، وأن يبتعدوا عن حياة البذخ والترف المُبَررة ، وأن يعيشوا هموم مجتمعاتهم ، ويشاركوها حياة المعاناة ، وعبء الحياة ، ثم يكونوا لهؤلاء قدوة في الاعتدال في العيش والبساطة في الحياة ؛ ليتّم لهم من خلال ذلك - بإذن الله عز وجـل - الولـوج إلى قلوبهم ، وجرّها إلى الخير في الدنيا والآخرة ، وليتذكر كثير من دعاتنا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يورث لأهله ديناراً ولا درهماً ، رغم أنهم أعز وأرفع عند الله منَّا ومن أهلنا وأولادنا. وليذكر هؤلاء - كذلك - أنّ رسول هذه الأمة - عليه الصلاة والسلام - كانت تمر عليه الأيام تلو الأيام فلا تُشعل نار طهي في بيته ، كما روت أُمنَا عائشة - رضي الله عنها - كما كان - عليه الصلاة والسلام - يسأل أصحابه إكرام ضيوفه لافتقاده ما يطعمهم به عليه الصلاة والسلام.

وإنها لوقفة جديرة بالتأمل من كل داعية إلى الله ، والله المستعان
أخوكم نبيل الأميري

منتدى القراء

إلى الأستاذ عادل التل مع التحية

لست ممن يفضل النقاش والحوار عبر صحف المجلات ، إلا أنني وبعد قراءة. مقالة الأخ عادل التل »أخطار النزعة المادية في العالم الإسلامي ، نقد كتابات جودت سعيد« في عدد البيان »البيان« (٦٥ - محرم ١٤١٤) رأيت أن أكتب هذه الرسالة. وما أذكر هنا يقتصر فقط على ما قرأته في هذه المقالة، وهي الثالثة من مجموعة مقالات متعددة لم ينته نشرها بعد:

إنه لأمر مؤلم أن نفتقد في عالمنا الإسلامي الجو العلمي الهادئ النظيف الذي يتيح المجال للحوار الفكري دون التعرض للإخلاص والنيات. فنجد أن الأخ عادل يقول : »هل هذا الطرح خروج من الدين أم لا؟« (ص ٣٦) إن عد الأستاذ جودت في عداد »الماديين« و»الماركسيين« ظلم كبير لمن يؤمن ويعيش على الإيمان بالله ورسوله ، ومجانبة للحقيقة، وتشويش للقارئ المسلم وخاصة لمن يطلع بشكل واسع على كثير من الكتابات الإسلامية. ويظهر هذا التشويش من رسالة »صدمة وحيرة« المنشورة في نفس العدد من البيان (٦٥).

من قرأ كتابات الأستاذ جودت يلحظ أن ما ورد في مقالة النقد هذه فقرات أخذت من سياقها ، ليعيد الأخ عادل صياغتها بأسلوبه ، وبما يوافق رأيه حول »المدرسة المادية« لقد اتهم الأستاذ جودت بأنه »يلغي مكان الدليل في القرآن« (ص ٣٤) وما أظن الكاتب قد فهم المقصود من مجال الأفكار المعروضة.

وحتى لا أعقد الأمور، وأطيل فيها سأذكر مثالاً واحداً وهو قضية »الشورى« لأشير إلى موضوع الاستفادة من » عالم الآفاق والأنفس« والذي يؤكده الأستاذ جودت ، وأظن أن الأخ عادل قد أخطأ في فهمه فأخذه على أنه إلغاء للنص : اختلف علماء المسلمين ومنذ القديم حول كون الشورى »ملزمة« أم »معلمة« والذي يقرأ ما كتب يجد أن هذا الأمر لم يحسم عبر السنين.

ولكن إذا نظرنا إلى عالم الشهادة والواقع والتاريخ وتجارب البشر رأينا أنه من الحكمة والأنسب لحفظ مصالح العباد وأمور الحياة في هذا العصر أن يشترك المتشاورون في صنع القرار ، بعيداً عن الفردية والجزئية في اتخاذ القرار. هل في الاستفادة من عالم الواقع إعراض عن الآيات والأحاديث ؟ لا أظن هذا وهو ما حاول الأخ عادل أن يفهمه للقارئ.

وأخيراً أدعو الله أن يلهمنا الفهم الصحيح لتغيير ما بأنفسنا (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

وأدعو إخوتي من شباب الإسلام إلى العناية الجادة بالقراءة والبحث والحوار.

وأدعو أخي عادل التل إلى قراءة ثانية وثالثة لكتب مفكرينا وعلمائنا ، وإن شاء الله لنا لقاء للحوار المباشر ، وتبادل الأفكار ، والمعايشة الأخوية.

د. مأمون مبيض

الورقة الأخيرة

بناء الإنسان

أحمد عبد الرحمن الصويان

لقد شرَّف الله الإنسان ، وكرمه علـى سائر المخلوقات بنعمة العقل ، وجعل ذلك مناطـاً للأمر والتكليف ، ولذا فليس غريباً أن يوجد في كتاب الله - عز وجل - عشرات الآيات، التي تدعو إلى التفكر والتعقل ، والنظر في ملكوت الله سبحانه وتعالى ، من مثل قوله عـز وجل :
((إنَّ فِـي خَـلْـقِ الـسَّـمَـوَاتِ والأَرْضِ واخْـتِـلافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ)) [آل عمران:١٩٠].
ولكن هل يجوز أن يكون عقل الإنسان انعكاساً لأفكـار المجتمع من حوله..؟ فيتأثر بنمط التفكير السائد ، ولا يفكر إلا فيما يفكر فيه الناس ، ولا يعمل إلا ما يعمله الناس..!
إن البيئة الاجتماعية والفكرية التي يعيش فيها الإنسـان تؤثر تأثيراً بالغاً على تصوارته وأفكاره ، وهي التي تصنع في الغالب أطروحاته وهمومه. والأمة الإسلامية تعاني من فراغ مدهش ، جاء نتيجة تخلف عقود متتابعة ، وزاد في ترسيخه وتعميق جذوره الغزو الثقافي الغربي ، قبل الاستعمار وبعده. وإننا نعاني من أدواء عديـدة في البيئة التي نعيش فيها ، ومن ملامح ذلك على سبيل المثال :
- قصور بيِّن في طريقة التفكير.
- قصور في نوعية المسائل التي يفكر فيها الإنسان ، ويشغل نفسه بها.
- قصور في طريقة بحث الأفكار ، ومناقشتها مع الآخرين.
- قصور في توظيف الأفكار في ميادين العمل والبناء.
وأبناء الصحوة الإسلامية جزء من هذا المجتمع يتأثرون به كـغيـرهم سلباً وإيجاباً ، ومن مهمات الحركة الإسلامية انتشار هذه الإيجابيات وتنميتها، ومقاومة السلبيات ، وتقليلها قدر الإمكان. ولقد قامت الحركة الإسلامية بجهد مبرور مشكور في هذا الميدان ، ولكنه أقل بكثير ممَّا يجب، وأقل بكثير من الإمكانات التي تملكها، وكما قال الشاعر:

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

إن بناء الإنسان المفكر القادر على التمييز والنظر من أصعب الصناعات التربوية ، ولكنهـا في الوقت ذاته من أهم الصناعات. ومهما كثرت الضغوط على الصحوة الإسلامية،وتزايدت عليها المحن ، وتكالب عليها الأعداء ، وتشعبت بها دروب العمل ، فيجب أن يكـون ذلك من أولويات البناء والتكوين. حتى تضمن بفضل الله تعالى بقاءها وصلابتها من جهة ، ونقـاءهـا وسلامة توجهها من جهة أخرى. وإن غياب المنهج العلمي ، وفقدان الضوابط الشرعية في الفهم ، والتلقي ، والعمل ، يؤدي جزماً إلى هذا القصور والخلل الذي نعيشه. والنهوض بالأمة من هذه الكبوة لن يكون إلا وفق الأسس والقواعد الشرعية ، المبنية على الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح. والعاملون للإسلام لا ينقصهم - في الغالب - الصدق والإخلاص، وإنَّما يحتاجون إلى العلم الدقيق بمحكمات الشرع وأصولـه، ليتـسنـى لهم تنزيلها على مقتضيات العصر.. ولذا كان التحدي الكبير الذي تواجهه الصحوة الإسلامية هو بناء الإنسان المفكر .!

تمت بعون الله ولله الحمد